

سیغموند فروید

الحلم وتأویلہ

ترجمة:
جورج طرابیشی

طبعة جديدة



دار لطيفة بيروت

هكذا الكتاب

كان من اعرق أحلام الأنسانية ان تجد مفتاحاً لتفسير أحلامها . ولقد تصدت لهذه المهمة في البدء الميثولوجيا الشعبية ، ثم الفلسفة ، قبل ان يتنطع لها أخيراً علم النفس . لكن المساهمة الكبرى في هذا المجال كانت للتحليل النفسي ، فمع الفرويدية تحول تفسير الأحلام الى علم .

وهذا الكتاب ، الذي يُترجم لأول مرة الى العربية ، لا يقدم « مفتاحاً » لتفسير الأحلام فحسب ، بل ايضاً مفتاحاً ومدخلاً لمجمل نظرية فرويد في التحليل النفسي .

الحلم وتاويله

S.P150



1 1 8 0 6 4

عالم المعرفة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

سیغموند فروید

الحلم وتأویلہ

ترجمہ:

جورج طرابیشی

دار الطلیعة للطباعة والنشر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

ص. ب ١١١٨١٣

٣١٣٦٥٩ /
٣٠٩٤٧٠ / تلفون

الطبعة الرابعة
آذار (مارس) ١٩٨٢

هذه ترجمة لكتاب

Le Rêve et Son
Interprétation
Par
Sigmund Freud

ما كان للبشرية أن تحمل نفسها مشقة تأويل أحلامها في العصر القابل للوصف بأنه عصر ما قبل العلم . فالاحلام التي تبقى في الذاكرة عند اليقظة كانت تعد تجليا نافعا او ضارا للقوى العليا ، من آلهة او ابالسة . ومع تفتح الروح العلمي ، اخلت كل تلك الميثولوجيا الاربية الساح لعلم النفس ؛ ويجمع اليوم العلماء قاطبة ، خلا نزرا يسيرا منهم ، على عزو الحلم الى النشاط النفسي للنائم بالذات .

بيد انه بات من الضروري ، بعد نبذ الفرضية الميثولوجية ، البحث للحلم عن تأويلات جديدة . فما الشروط التي يحدث فيها الحلم ؟ وما صلاته بالحياة النفسية في حالة اليقظة ؟ وكيف تتمكن التنبيهات الآتية من الخارج من التأثير على النائم ؟ ولم تلك التفاصيل التي كثيرا ما ينفر منها ذهن الانسان الصاحي ، ولم ذلك التنافر بين وسائل الحلم التعبيرية وبين الحالات الوجدانية التي تصاحبه ؟ وما مصدر عدم استقرار الحلم اخيرا ؟ لماذا يرده الذهن عنه فور الاستيقاظ وكأنه عنصر

غريب ، ولماذا يمحي ، كليا او جزئيا ، في الذاكرة ؟ ان هذه العضلات ، التي ما ونت منذ عديد القرون تتطلب حلا ، لم تجد حتى الان حلا مرضيا .

ان العضلة التي تحظى باهتمامنا الاول ، عضلة دلالة الحلم ، لهي ذات وجهين : فمن جهة اولى نبحث عما يعنيه الحلم من وجهة النظر السيكلوجية وعن مكانته في منظومة الظاهرات النفسية ، ونريد من الجهة الثانية ان نعرف هل الحلم قابل للتأويل وهل ينطوي مضمون الحلم ، مثله مثل اي نتاج نفسي آخر قد نميل الى مماثلته به ، على «معنى» ؟

تواجهنا هنا ، باعتبار الوضع الراهن للمسألة ، ثلاثة اتجاهات متميزة بلا لبس . فالاتجاه الاول ، الذي يبدو وكأنه صدى متأخر للعصر الذي كان ينعزى فيه الى الحلم اصل خارق للطبيعة ، يروج له عدد من الفلاسفة . فحياة الحلم في نظرهم يكمن مبدؤها في حالة خاصة من النشاط النفسي : فهو ضرب من ارتقاء الروح نحو حالة عليا . ذلكم هو ، على سبيل المثال ، راي شوبرت : «الحلم يتحرر الفكر من قيود الطبيعة الخارجية ، وتتملص الروح من اغلال الشهوانية» . ويؤكد آخرون ، من غير ان يتطرفوا هذا التطرف ، ان الاحلام في جوهرها تنبيهات نفسية ، وانها تجليات لبعض القوى النفسية (١) التي تحول حالة اليقظة دون تطورها تطورا حرا . ومن المعلوم ان غالبية المراقبين يعزون الى تجليات الحياة الحلمية تفوقا بينا في عدد من الميادين (ميدان الذاكرة على سبيل المثال) .

اما الاطباء الذين يكتبون عن الحلم ، فيقولون ، بوجه عام ، براي معاكس جذريا لراي الفلاسفة ، فهم يكادون لا يقرون للحلم بأي قيمة بوصفه ظاهرة نفسية . فهو ينجم في رأيهم عن تنبيهات

جسمانية وحسية تأتي الى النائم من العالم الخارجي وممن اعضائه الداخلية على حد سواء . وعلى هذا الاساس ، يكون مضمون الحلم عاريا من كل معنى وعصيا على كل تأويل ، مثله مثل النغمات التي تصدر عن ملامس البيانو حين تعزف عليها يد لا خبرة لها بالموسيقى . اما تعريفه في هذه الحالة فهو ببساطة كما يلي : «تظاهرة مادية عديمة الجدوى دائما ومرضية في غالب الاحيان» (بينغ) . اما تفسير الاشارات والرموز التي تميز الحياة الحلمية فيكمن ، بالتالي ، في النشاط غير المتساق لمجموعات معينة من الخلايا تظل في حالة يقظة في الدماغ تحت سلطان تلك التنبيهات الفيزيولوجية ، بينما يلبث باقي الجسم غارقا في النوم .

ويتشبهت الحس الشعبي ، اخيرا ، بمعتقده القديم ، من دون ان يتأثر - الا في اضييق الحدود - بأحكام العلم تلك ، ومن دون ان يكثرث بالاصول العميقة للحلم . ان للحلم في نظره معنى ، وهذا المعنى ينطوي على نبوءة . وحتى تستخلص هذه النبوءة من مضمون الحلم ، الذي غالبا ما يكون مبهما ملغزا ، فلا بد من اللجوء الى بعض الطرائق في التفسير ، وهذه الطرائق لا تعدو ان تكون بوجه عام استبدالاً لمضمون الحلم ، كما انطبع في الذاكرة ، بمضمون آخر . ومن الممكن ان يتم هذا الاستبدال تفصيلا ، بواسطة «مفتاح» لا يجوز ان يتبدل . ومن الممكن ايضا استبدال الموضوع الاساسي للحلم دفعة واحدة بموضوع آخر لا يعدو الاول ان يكون رمزا له .

واهل الجد يبتسمون لهذه الصبانيات ، ولسان حالهم جميعا التعبير الشائع : «انها أضغاث أحلام» .

كم كانت دهشتي عظيمة حين تبينت ذات يوم ان اصدق تصور للحلم لا ينبغي البحث عنه لدى الاطباء ، وانما لدى الجهلة بالطب ممن يبقى لديهم ذلك التصور مختلطا بالخرافة والتطير ! كنت قد انتهيت ، فيما يتعلق بالحلم ، الى نتائج غير متوقعة اتاحها لي منهج جديد في الاستقصاء السيكلوجي ، وهو عين المنهج الذي ادى لي خدمات جلى في معالجة ضروب الحصر والوساوس والافكار الهذائية وما الى ذلك من الصراعات النفسية ، والذي جرى تبنيه منذ ذلك الحين باسم «التحليل النفسي» من قبل مدرسة بأسرها من الباحثين . فمعظم هؤلاء المتهنين ما امكنهم الا ان يقرأوا بالتشابهات الكثيرة القائمة بين الحياة الحلمية وبين شتى انواع الاضطرابات السيكلوجية التي يمكن ملاحظتها في حالة اليقظة . وعليه ، بدا لنا انه من المفيد والمثير للاهتمام ان نطبق على صور الحلم نفس طريقة التقصي التي اثبتت

فاعليتها فيما يتعلق بالصور السيكوباتية (١) . فافكار الحصر وافكار الوسواس غريبة عن الشعور السوي ، غربة الاحلام عن الوعي في حالة اليقظة . وجذور تلك الافكار ، كجذور الحلم ، تكمن في الاشعور . ولئن ذهب الرأي الى ان هناك فائدة من وجهة النظر العملية من دراسة نشوء تلك الصور السيكوباتية وتطورها ، فهذا لانه كان قد قام البرهان تجريبياً على انه يكفي ان تكتشف السبل الاشعورية التي تلتحق عبرها الافكار المرضية لفرد من الافراد بباقي مضمونه النفسي ، حتى يجد العرض العصابي حله وحتى تصبح الفكرة المرضية قابلة كل القابلية للقمع والمنع . انني ادين اذن للطب النفسي بالطريقة التي استخدمتها لحل مشكلة الحلم .

من اليسير وصف هذه الطريقة ، لكن تطبيقها يقتضي خبرة ومهارة . لنفترض ان امامنا مريضاً تتسلط عليه فكرة حصرية . ولندعه الى تثبيت انتباهه على هذه الفكرة ، لا لكي يحلم بها كما في اوقات سابقة ، وانما لكي يرصد بوضوح وجلاء وجوهها كافة ويطلع الطبيب ، بلا تحفظ ، على كل ما يعن بباله . في غالب الاحيان يبدأ المريض بالاجابة بأن انتباهه عاجز عن اسنياعاب اي شيء . وهنا لا بد من تكذيبه والتأكيد الجازم له بأنه من المستحيل ان تنعدم لديه الصور . وبالفعل ، سرعان ما تنهمر افواج من الخواطر ومن تداعيات الافكار ، لكنها تكون مسبوقة على الدوام بملاحظة من المريض يعلن فيها انها لامعتولة وعديمة الدلالة ، او يزعم انها خطرت بباله مصادفة من دون ان يربطها شيء بالموضوع المقترح . عندئذ نتبين ان هذا النقد الذاتي على وجه التحديد هو الذي حال بين المريض وبين اظهار صورهِ والإبانة عنها او حتى وعيها . واذا امكننا ان نجعله ينكص

عن انتقاد افكاره ويتابع بكل بساطة التصريح عن جميع التداعيات التي سترد الى ذهنه بفعل مجهود انتباهي متصل ، حصلنا على مادة نفسية ذات صلة مباشرة بالفكرة المرضية البدائية ، تتيح امكانية اكتشاف التداعيات القائمة بين هذه الفكرة وبين حياة المريض النفسية ، وبفضلها يستطيع الطبيب في نهاية الامر ان يسند الفكرة المرضية بفكرة جديدة متلائمة بدقة مع متطلبات مريضه السيكولوجية .

لا يتسع المجال هنا لا لتمحيص الفرضيات التي تقوم على اساسها هذه التجربة ، ولا لدراسة الاستنتاجات الواجب استخلاصها من كون هذه التجربة مؤكدة النجاح . حسبنا ان نقول اننا بتثبيتنا انتباهنا على التداعيات «الارادية» ، على التداعيات «التي تحول دون التفكير» ، على تلك التي يسرع النقد الذاتي الى نبذها باعتبارها عديمة الدلالة ، نحصل الى جانب الفكرة المرضية على مادة تسمح لنا بأن نجد لتلك الفكرة حلا . واذا طبق المرء هذه الطريقة على نفسه ، فان خير وسيلة لمتابعة التجربة هي ان يسجل ، كتابةً ، الافكار التي لا يجد من تفسير لظهورها ، وهذا طرداً مع حضورها وتداعيتها .

اود الان ان ابيّن النتيجة التي يمكن الوصول اليها بتطبيق ذلك المنهج في تأويل الحلم . ان اول حلم يخطر للبال يمكن ان يصلح للبرهان على ما ارمي اليه . لكنني افضل ، لاسباب شتى ، اختيار الحلم الذي حلمته في الليلة الماضية . فهو قصير ، وهذا ما يتيح لنا استعماله ، ثم ان ما حفظت منه لا معنى له ومبهم ومتداخل وفق المراد . اليكم مضمون الحلم الذي سجلته بعد الاستيقاظ مباشرة :

(اجتماع على مائدة - او على مائدة مضيف . يقدمون سبانخ . السيدة إ. ل جالسة بقربي ومستديرة نحوي . يدها تلامس بألفة ركبتي . أهمّ بابعاد يدها . تقول لي : «كان لك على

الدوام عينان في غاية الجمال !» . المح بابهام شيئاً يشبه رسماً يمثل عيني ، او بلورتي نظارة) .

ذلك هو الحلم ، او على الاقل ، ذلك ما امكنني ان اسجل منه . انني اجده غامضاً ، عديم الدلالة ، يبعث على شيء من الدهشة . فالسيدة إ. ل شخص ربطتني به صلات صداقة واهية ، ولم أرغب قط ، على ما أعلم ، في علاقات امتن . لقد انقضى زمن طويل منذ ان رايتها آخر مرة ، ولا احسب انني سمعت احداً يتحدث عنها في الآونة الاخيرة . انني لا اعثر ، في سيرونة هذا الحلم ، على اي اثر من الوجدانية .

كلما اعمنت فيه تفكيراً ، بدا لي اعصى على الفهم . وسأقوم الان بفحصي الاستبطاني ، وسأسجل الافكار التي سترادوني ، بلا موقف مسبق وبلا انتقاد . لكنني لن اتأخر عن ان اكتشف ان هذا العمل اسهل بكثير اذا قسّمت اولا الحلم وعناصره ، واذا جمعت حول هذه الاجزاء المعزولة الافكار المرتبطة بها .

اجتماع ، مائدة ، او مائدة ضيافة . انني اتذكر بادیء الامر الحادث الذي ختم سهرة الامس . فحين كنت اهم بمفارقة حفل صغير بصحبة صديق ، عرض عليّ هذا ان نستقل عربة لايصالي الى بيتي . واضاف قوله : «انني احب كثيراً اختراع العداد . فأنت تتبعه بعينيك ، وتنشغل به ، وتتسلى ...» . وحين جلسنا في العربة ، وحرك الحوذي زجاج النافذة بحيث امكننا ان نقرأ الرقم : ٦٠ هيلراً ، قلت متابعاً دعابته : «ما كدنا نقعد حتى صرنا مدينين . ان العداد في العربة لكمائدة الضيافة» فأنت تشعر بأنك صرت شحيحاً وانانياً من كثرة تفكيرك بالدين الذي يتزايد . فهذا الدين يتعاظم بسرعة كبيرة ، وانك لتخشى ان يذهب مالك سدى . وعلى مائدة الضيافة ايضا كان شاغلي الدائم ، المضحك بعض الشيء ، الا ادع الحساب يتراكم في غير صالح» . واستشهدت ، من غير مبرر - انني لا اقر بذلك -

ببيتين لغوته :

انت تهبنا الحياة

فتجعلنا ، نحن الفقراء ، نفل عنقنا بالدين ...

وثمة فكرة ثانية تتعلق بمائدة الضيافة : فقد دارت بيني وبين زوجتي مناقشة قبل بضعة اسابيع ونحن على المائدة في فندق بالتيروول . فقد ضايقني منها ان تبش وجهها لبعض اشخاص كنت اريد ان اتحاشى بأي ثمن معشرهم . ويخيل الي ، وهنا ايضا ، ان مائدة الضيافة سببت لي ، بطريقة او بأخرى ، إحباطا . وما يدهشني الان ايضا التباين بين موقف زوجتي على تلك المائدة وبين الموقف الذي اخذته في الحلم السيدة إ. ل التي كانت تدير وجهها كله الي .

ملاحظة أخرى : ان هذا التفصيل من تفاصيل حلمي ينسخ مشهدا صغيرا دار بيني وبين زوجتي يوم كنت اغازلها سرا . واللامسة تحت المائدة كانت قد بادرتني بها ردا على رسالة طلبت فيها يدها للزواج . والمرأة الغريبة إ. ل هي التي احتلت في الحلم مكان زوجتي .

ان السيدة إ. ل ابنة رجل كنت ادين له بالمال فيما غبر من الزمن . هنا اكتشف صلة ما كانت لتخطر لي ببال بين تفاصيل حلمي والافكار التي ايفظها في . فلو تتبعنا سلسلة التدايعات التي تنطلق من واحد من عناصر الحلم ، لوجدنا انفسنا نعود بسرعة الى عنصر آخر . وبعبارة أخرى ، ان بين الافكار التي يوقظها الحلم روابط يتعذر تمييزها وإدراكها في الحلم نفسه . فحين يبدو للعيان ان شخصا من الاشخاص يعول على خدمات الآخرين من دون ان يتنازل فيكلف نفسه اي جهد او مشقة ، فما العبارة التي درجت العادة على استخدامها لتقريبه؟ اننا نقول له : «هل تعتقد اننا هنا لجمال عينيك؟» . وهكذا لا يكون للكلمات التي تفوهت بها السيدة إ. ل في حلمي : «كان لك على الدوام عينان في غاية الجمال» من معنى سوى : «ان ما

نفعله انما نفعله حبا بك ؛ ولقد حصلت بالمجان على الدوام على ما ترغب فيه» . وبديهي ان العكس هو الصحيح . فقد جعلني اصدقائي ادفع غالبا على الدوام ثمن مجاملاتهم وملاطفاتهم . ولهذا ادهشني الركوب المجاني في العربة ، مساء امس ، مع صديقي وكأنه امر خارق للمألوف .

من جهة أخرى ، كثيرا ما كنت وجدت نفسي مدينا لذلك الصديق الآخر الذي تناولنا العشاء على مائدته مساء البارحة . وكنت قد فوّتت ، قبل ايام قليلة ، فرصة لافي بما عليّ له . فانا لم اقدم له في حياتي قط سوى هدية واحدة ، وهي عبارة عن كأس قديمة رسمت عيون على طول مدارها . انها تسمى «أوشيال» ، وهي تقى من عين الحسود . والصديق الذي اتكلم عنه طبيب عيون . وبالامس ايضا سألته عن اخبار مريض كنت قد ارسلته اليه لاستشارته بصدد مسألة نظارات .

لنلاحظ هنا ان جميع عناصر حلمي تقريبا متضمنة في الافكار التي ابنتها اعلاه . ويبقى ان نتساءل ماذا يمثل السبانخ المقدم على مائدة المضيف . وفي الحق ، يشير هذا السبانخ الى حادث جرى في يوم سابق في بيتي ، على المائدة ، حين ابسى طفل - وهو ذاته الذي يمكن ان يدعي لنفسه العينين الجميلتين - ان يأكل من السبانخ . وكنت انا ايضا اقرف ، في طفولتي ، من هذه الخضار ، ولم يتبدل ذوقسي وما صرت استطيبها الا في زمن متأخر . هكذا يكون ذكر تلك الاكلة قد ربط بصورة صبي الصغير صورة طفولتي بالذات . كانت والدتي تستهجن سلوكي ذاك وتقول لي : من حسن حظك ان يكون لديك سبانخ ، فما اكثر الاولاد الذين يتمنون لو كانوا مكانك !» . وهذا يعيدني الى واجبات الاهل تجاه اولادهم ، وتأخذ كلمات غوته :

انت تهبنا الحياة

فتجعلنا ، نحن الفقراء ، نغل عنقنا بالدين ...

معنى جديدا بعد اتضاح صلتها بما تقدم .

لنتوقف هنا ولنلق نظرة سريعة على النتائج التي توصلنا اليها حتى الان عن طريق تحليل ذلك الحلم . لقد بدأت بأن عزلت جميع تفاصيله ، قاطعا بذلك الروابط التي كانت تربطها بعضها ببعض ؛ ثم تتبعته انطلاقا من هذه التفاصيل تداعيات الافكار التي تواردت في ذهني . وحصلت بهذه الطريقة على جملة من افكار وذكريات تعرفت بينها عددا لا بأس به من العناصر الاساسية بالنسبة الى حياتي الداخلية . وقد اتضح ان هذه المادة ، بعد تسليط الضوء عليها عن طريق تحليل الحلم ، ذات صلة وثيقة بالحلم نفسه ؛ وهذا امر ما كنت لاكتشفه لو اكتفيت بمجرد فحص بسيط لمضمون الحلم . لقد كان الحلم متفككا ، غير قابل للفهم ، ومجردا من كل عنصر وجداني . وبالمقابل ، يتحسس المرء في الافكار التي استخلصتها من خلفيته شحنة وجدانية مكثفة لها ما يفسرها ويعملها ؛ وهذه الافكار تترابط فيما بينها بمنطق كامل ، والصور الالهية من غيرها تتكرر في تلك التداعيات اكثر من غيرها ايضا . ان بعضا من هذه الافكار الاساسية لم يظهر في مضمون الحلم الذي اقترحنه كمثل : التعارض بين «المفرض» و«المتجرد» ، وفكرة «الدين» ، وأخيرا فكرة «الهبة المجانية» . وكان في مستطاعي ، لو وددت ، ان ابيّن ان جميع خيوط تلك الحزمة من الافكار التي تكشف لي بطريق التحليل تفضي الى عقدة واحدة ، فيما لو شددت عليها بقوة اكبر . لكن هناك ، الى جانب مصالح العلم ، مصالح خاصة تنهاني نهيا قاطعا عن نشر بحث كهذا . اذ ان مثل هذا العمل كان يقتضي ان اميط اللثام عن بعض مشاعري الحميمة التي كشفها لي التحليل ، لكن التي لا يحلو لي ان اعترف بها امام نفسي . فخير لي اذن ان الزم الصمت . واذا سألني سائل : لماذا لم يقع اختياري على حلم استطيع ان ابوح بتحليله بلا

تحفظ ولا تقييد بحيث يمسك القارئ على نحو افضل واعمق بمعنى الافكار المعروضة وبارتباطها ، فان الجواب على ذلك لبسيط : فكل حلم آخر كان يمكن ان اختاره كان سيرتد في خاتمة المطاف الى نفس تلك العناصر الاساسية التي تصعب المجاهرة بها والتي ستقصرني في هذه الحال على التكتّم نفسه . ولن تتضاءل الصعوبة فيما لو اخضعت للتحليل حلم شخص غريب ، اللهم الا اذا تم ذلك في شروط يمكنني فيها ان ازيح الستار كلها من دون ان اخون ذاك الذي صارحتني بحلمه .

انه لفي وسعي من الان تحديد الحلم بأنه بديل عن كل **المضمون العاطفي والعقلي لتداعيات الافكار التي قادني اليها التحليل** . ولست ادري بعد طريقة تولد الحلم عن هذه الافكار ، لكن في مقدوري ان اجزم من الان انه من الخطأ الا نرى في الحلم سوى ظاهرة مادية عادية الاهمية بالنسبة الى علم النفس ولا علة لها سوى النشاط الدائب لبعض مجموعات الخلايا اثناء الرقاد .

لنلاحظ هنا ان مضمون الحلم اقصر بكثير من كل تلك الشبكة من الافكار التي يبدو وكأنه بديلها . ثم ان الحلم قد نجم ، كما بيّن لنا التحليل ذلك ، عن حادث عديم الاهمية وقع في السهرة السابقة .

طبيعي انني لا اريد ان أستخلص استنتاجات عامة من تحليل حلم واحد . لكن حين توضح لي التجربة ان اول حلم يرد بالبال يقودني ، بمجرد اخضاعه للتحليل الانف الذكر ، الى اشباه تلك الترابطات بين الافكار ، وان تلك الافكار ليست مترابطة فيما بينها ترابطا مدهشا فحسب بل هي تستنسخ ايضا عناصر الحلم جزئيا ، فقد يكون من حقي في هذه الحال ان اؤكد ان تداعيات الافكار التي لاحظتها لأول مرة ليست وليدة المصادفة المحضة ؛ بل قد يخيل الي انه من المباح لي ان اضع واحدا

مصطلحات عملي الجديد .

انني اقيم مقابلة بين الحلم ، كما القاه في ذاكرتي ، وبين المادة التي سيقدمها لي التحليل فيما بعد . وانا اطلق على الاول اسم المضمون الظاهر للحلم ، واطلق على المادة ، بدون اي تمييز آخر ، اسم المضمون الكامن للحلم .

وهانذا اواجه مشكلتين جديدتين لم اقم بصياغتهما حتى الان :

١ - ما العملية النفسية التي انقلب بها المضمون الكامن للحلم الى ذلك المضمون الظاهر الذي القاه في ذاكرتي عند استيقاظي ؟

٢ - ما الاسباب التي جعلت من هذا الانقلاب ضروريا ؟

انني سأطلق على عملية تحول الحلم الكامن الى حلم ظاهر اسم عمل الحلم . وسأطلق على العمل المناقض له ، العمل الذي ينتج عنه تحول بالاتجاه المعاكس ، اسم عمل التحليل . اما باقي المشكلات ، المتعلقة بطبيعة التحريض على الحلم ، وبأصل مادة الحلم ، وبمعناه المحتمل ، وبوظيفته ، وبالحوافز التي تجعل نسيانه امرا بالغ اليسر ، فلن اوليها اهتمامي الا فيما بعد ، حين سأنتقل من مسألة الحلم الظاهر الى مسألة مضمونه الكامن .

وسأبذل كل جهد ممكن اثناء ذلك لتحاشي الخلط بين الحلم الظاهر وبين افكار الحلم الكامنة ، اذ كثيرا ما تبدى لي اننا اذا كنا نلاقي في الادب الكثير من المعطيات الكاذبة والمتناقضة عن الحياة الحلمية ، فالسبب في ذلك انما يعود الى ان الكتّاب يجهلون في غالب الاحيان ان الحلم ينطوي على افكار كامنة وأن من الضروري اولا تحرير هذه الافكار وتسليط الضوء عليها عن طريق التحليل .

- ٣ -

ان تحول افكار الحلم الكامنة الى مضمونه الظاهر يستأهل ان يستأثر بانتباهنا كله ، لانه المثال الاول المعروف على الطريقة التي تنتقل بها مادة نفسية من شكل تعبيري الى شكل آخر لا نتوصل الى فهمه الا عن طريق مجهود منهجي .

ونظرا الى العلاقات القائمة بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر ، يمكن تقسيم الاحلام الى ثلاث فئات .

في الفئة الاولى نضع الاحلام الواضحة المعقولة التي تبدو مستعارة بصورة مباشرة من حياتنا النفسية الواعية . وهذه الاحلام متواترة الحدوث . وهي مقتضبة ، لا تكاد تستأهل اهتمامنا ، لانه ليس فيها ما يدهش وليس فيها ما يثير الخيال . ووجود مثل هذه الاحلام هو خير حجة ضد النظرية التي تريد ان يكون الحلم نتاجا لنشاط منعزل لبعض مجموعات من الخلايا . فهذه الاحلام لا تشهد بحال من الاحوال على نشاط نفسي مختزل او مجتزأ ، ومع ذلك لا نتردد في الاقرار لها بسمات الحلم ، ولا نخلط بينها البتة وبين منتجات حالة اليقظة .

وفي الفئة الثانية نضع مجموعة الاحلام المعقولة التي لا يكف معناها ، بالرغم من وضوحه التام ، عن ادھاشنا ، لان ما من شيء فينا يبرر نظير تلك الاهتمامات . من قبيل ذلك على سبيل المثال حين نحلم بأن قريبا عزيزا علينا قضى نحبه بسبب الطاعون ، مع انه ليس عندنا اي دافع لنخشى وقوع حادث كهذا او لنعتقد بإمكان حدوثه . وهكذا نتساءل بدهشة : «من اين امكن لهذه الفكرة ان تجيئني ؟» .

ونضع في الفئة الثالثة اخيرا الاحلام التي تفتقر الى المعنى والوضوح معا ، الاحلام المتفككة ، الغامضة ، العبثية . وذلك هو بالاصل الشكل الذي تتجلى فيه في غالب الاحيان ، ولهذا يرفض اطباء ، الذين لا يعزون الى الاحلام غير اهمية ضئيلة ، ان يروا فيها سوى نتاج نشاط نفسي مختزل . ولنقل ، فضلا عن ذلك ، انه من النادر بوجه عام الا تتضمن الاحلام الطويلة بعض الشيء والمتماسكة منطقيا ولو اثرا خفيفا من التفكك وعدم الترابط .

نستطيع ان نخلص مما سبق الى ان التعارض بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر لا يمثل من اهمية الا بالنسبة الى احلام الفئة الثانية ، ثم على وجه الخصوص ، الفئة الثالثة . ففي احلام الفئة الاخيرة نصادف الالغاز التي لا سبيل الى حلها الا اذا جرى استبدال المضمون الظاهر بالمضمون الكامن . والتحليل الذي عرضناه آنفا هو تحليل لحلم من تلك الفئة ، حلم غامض بقدر ما هو غير قابل للفهم . لكننا اصطدنا ، على غير ما كنا نتوقع ، بموجبات تكتم حالت بيننا وبين تعميق تحليلنا ، ويخيل الينا ، بعد بضع تجارب من النوع نفسه ، ان من حقنا ان نتكهن بما يلي :

ثمة علاقة خفية وضرورية بين الطابع المبهم واللامفهوم للحلم وبين المقاومة التي تواجه كل محاولة لجلاء فكرته الكامنة .

سوف نسعى الى معرفة طبيعة هذه العلاقة ، لكن من المرغوب فيه قبل ذلك ان نحول انتباهنا نحو احلام الفئة الاولى الاكثر بساطة ، الاحلام التي يتداخل فيها المضمون الظاهر والمضمون الكامن على نحو يبدو معه عمل الحلم معدوما .

ان دراسة هذه الاحلام ضرورية ايضا من وجهة نظر اخرى . فهي تمثل النموذج الذي تتكون وفقا له احلام الاطفال ، وهي احلام متماسكة مترابطة ، وواضحة كل الوضوح على الدوام . وهذا ، بالمناسبة ، حافز آخر يبعث على الامتناع عن ارجاع الحلم الى نشاط جزئي للدماغ اثناء النوم ، اذ ما الموجب لقصر اختزال الوظائف النفسية على نوم الراشد دون نوم الطفل ؟ مهما يكن من امر ، فان دراسة العمليات النفسية لدى الطفل ، وهي عمليات في منتهى البساطة ، تبدو لنا تمهيدا ضروريا لدراسة سيكولوجيا الفرد .

سأضرب هنا كأمثلة بعض احلام طفولية امكن لي ان اجمعها . فرضت الحمية على فتاة صغيرة في شهرها التاسع عشر طوال يوم كامل بعد ان تفتيات في الصباح وكان التوت البري (الفريز) هو الذي تسبب في القيء على حد زعم الخادمة . وفي الليلة التالية لذلك اليوم من الصيام لفظت الفتاة اثناء منامها اسمها ، ثم اضافت قولها : «فريز ... تارئة ... مغلي» . الطفلة تحلم ، اذن ، بأنها تأكل ، وترى في وجبة طعامها نفس الاشياء التي تتوقع ان تحرم منها . كذلك رأى طفل في الشهر الثاني والعشرين من العمر ، في منامه ، لذة محرمة : فقد كان كلف البارحة بأن يقدم الى عمه سلة صغيرة من الكرز ولم يؤذن له بأن يأكل منها سوى كرزة واحدة . وحين استيقظ في الصباح قال مبتهجا : «لقد اكل هرمان الكرز كله» . وثمة فتاة صغيرة لها من العمر ثلاث سنوات وثلاثة اشهر قامت بنزهة في مركب ، ولكن النزهة كانت أقصر مما تشتتهي لانها طفقت تبكي لحظة النزول . وفي اليوم التالي روت انها هامت فوق البحيرة

طوال الليل ؛ لقد تابعت اذن في الحلم النزهة المقطوعة . كما ظهر على طفل له من العمر خمس سنوات وثلاثة اشهر كندر المزاج اثناء جولة في منطقة الداشتين . وكان يسأل عند الوصول الى كل قمة جديدة : اهو الداشتين ، وفي نهاية الامر ابي ان يرافق الآخرين لرؤية الشلال . وقد وجد موقفه هذا ، الذي عزى الى التعب ، تفسيره في اليوم التالي ؛ فقد صرح عند يقظته بأنه حلم انه يتسلق الداشتين . وآية ذلك انه كان داخله الاعتقاد بأن هدف النزهة ارتقاء الداشتين ، ثم شعر بخيبة امل حين لم يشاهد الجبل . وغب ذلك ، عوضه الحلم عن خيبة النهار . وهذا المثال نفسه يتكرر لدى فتاة صغيرة لها من العمر ست سنوات : فقد كانت تتنزه مع والدها ، لكن تأخر الساعة ارغمها على العودة من دون ان تكون بلغت الهدف . فقد كانت تتمنى الوصول الى عمود يحمل لافتة عليها اسم مكان آخر للتنزه ، ووعدها ابوها بأنه سياخذها اليه في مرة قادمة . وفي صبيحة اليوم التالي ، قصت على والدها انها حلمت بأنه قام معها بالنزهة الاولى ، وبعدها بالثانية .

ليس من العسير علينا ان نتبين ان جميع احلام الاطفال هذه متشابهة في نقطة معينة . فهي جميعها تحقق الرغائب التي ولدها فيهم النهار ولم يشبعها . انها اذن ، بصراحة ووضوح وبلا لف او دوران ، رغائب متحققة .

وإليكم ايضا حلم طفل قد لا يفهم للوهلة الاولى ، ولكنه يحقق هو الآخر رغبة ، لا اكثر ولا اقل . فتاة صغيرة في حوالي الرابعة اقتيدت من الريف الى المدينة لاصابنها بشلل الاطفال . وقد قضت الليل لدى عمه لا اطفال لها ، في سرير لا يناسب حجمه قامتها . وفي صبيحة اليوم التالي قالت انها حلمت بأن السرير صغر كثيرا بحيث لم يعد لها متسع فيه . ان لغز هذا الحلم ، من حيث انه تحقيق لرغبة ، سهل الفك والتوضيح .

فمن يجهل ان الاطفال لا يرغبون في شيء رغبتهم في ان يصيروا كبارا ! وقد ذكر طول السرير الفتاة الصغيرة بوهن مكانتها ، فأسرعت تتدارك في الحلم هذا الموقف المذل ، فصارت كبيرة للغاية حتى ما عاد السرير على كبره يسمعها .

وحتى عندما يتعقد الحلم الطفلي وينزع الى الرهافة ، يظل في الميسور ارجاعه على الدوام الى اشباع رغبة . حلم صبي صغير في الثامنة من العمر بأنه يقف بجانب أخيل في المركبة التي يقودها ديوميديس . وكان نبي البارحة قد استغرق في قراءة اساطير اليونان البطولية . فلا غرو بعد تحمسه لذينك البطليين ان يكون قد أسف على انه لم يعيش في زمانهما .

تكشف لنا هذه الامثلة المتنوعة عن سمة ثانية للحلم الطفلي : فهو ذو صلة مباشرة بالحياة اليومية . فالأمني التي نحقق فيها ، يكون الطفل قد كوّنها اثناء النهار ، وفي غالب الاحيان عشية ، بتوق عظيم . وهو ، من جهة اخرى ، لا يحلم ابدا بأشياء تبدو عديمة الدلالة او غير مثيرة للاهتمام بالنسبة الى عقل طفل .

ولدى الراشد ايضا نلاقي الكثير من الامثلة على هذه الاحلام من النمط الطفلي ، لكنها مقتضبة جدا ، على الدوام بمربيا ، كما ذكرنا آنفا . هكذا نرى الكثيرين من الناس يحلمون بأنهم يشربون اذا ما ظمئوا اثناء النوم ؛ وبعد تنحية الرغبة آنيا على هذا النحو يجدون سبيلا الى متابعة النوم . هذه الاحلام ، التي نستطيع ان نسميها احلام ترفيه اذا شئنا ، ليست نادرة ، وغالبا ما تحدث قبيل اليقظة ، حين يحدث النائم بأنه لم يعد هناك بد من الاستيقاظ ، فيطفق يحلم بأنه واقف على قدميه ، منصرف الى غسيل وجهه وتسريح شعره ، او حتى منهمك في المدرسة او في المكتب ، اي في المكان الذي يتوجب عليه الذهاب اليه . وغالبا ما يحلم المرء ، في الليلة السابقة للسفر ، بأنه وصل الى المكان الذي يقصده . كذلك يحدث ، قبل حضور

عرض مسرحي او اجتماع اصدقاء ، ان يستبق الحلم ، من قبل ما يشبه نفاذ الصبر ، المسرة الموعودة .

وقد يعبر الحلم عن تحقيق الرغبة تعبيرا غير مباشر احيانا . ومن الضروري في هذه الحال ان نضيف الى السلسلة الحلقة المفقودة منها ، اذا اردنا الوصول الى فكر النائم الحقيقي . وتلك هي الخطوة الاولى على طريق تأويل الحلم . روى لي زوج ، على سبيل المثال ، حلم زوجته الشابة . فقد حلمت هذه الاخيرة بأن الطمث جاءها . والحال ان انقطاع الطمث هو من علائم الحمل . وهاتان الفكرتان لا يمكن الا ان نتطابقا في ذهن الزوجة الشابة ، ومضمون حلمها ، من حيث انه تحقيق لرغبة ، يبين لي بوضوح انها تتمنى ان يتأخر الحمل لفترة اخرى ايضا .

وفي حالات خاصة من الضرورة القصوى ، تغدو احلام النمط الطفلي متواترة الى حد يبعث على الاستغراب . فقد روى رئيس بعثة قطبية ان رجاله ، المقضي عليهم اثناء التشتية في الجليد بوجبات محدودة ومحددة من الطعام لا تتنوع ابدا ، كانوا يحلمون في كل ليلة ، كالاطفال ، بوجبات فاخرة وافرة ، وبكدسات من التبغ ، وبمباهج الحياة .

وليس من النادر ان ينفصل عن خلفية حلم غامض ، طويل ومبهم ، موضوع اوضح نتعرف فيه للحال تحقيق رغبة . لكن هذا الموضوع يكون ملتحما بمواد غير مفهومة . وحين يقضي المرء فترة طويلة في تحليل احلام الراشدين ، يتبين بشيء من الدهشة انه حتى الاحلام التي تبدو سطحية للغاية ليست بسيطة البتة بساطة احلام الاطفال ، وان ثمة معنى خفيا يكمن وراء صورة اللذة المتحققة .

ان لفز الحلم سيجد حله بلا ريب على ابسط نحو وبصورة مرضية ومقنعة الى ابعد الحدود لو اتاح لنا التحليل ان نرجع احلام الراشدين الفاضلة واللامفهومة الى النمط الطفلي ، اي

او راينا فيها تحقيقا لرغبة راودت الراشد بلجاجة في النهار . لكن هذا التوقع ليس له ما يبرره البتة . فاحلام الراشدين مكنتة على الدوام تقريبا بمواد عبثية ومختلطة ومتنافرة ، وهذه المواد لا تنطوي على اثر من رغبة محققة .

ولنلفت الانتباه ، قبل ان ندع وشأنها هذه الاحلام الطفلية التي هي بكل جلاء تحقيق لرغبات ، الى خاصة اخرى لوحظت في الحلم منذ زمن طويل ، ويمكن التحقق منها على احسن وجه في احلام الفئة الاولى . فكل حلم من الاحلام التي درسناها يمكن صوغه بصيغة التمني : «آه لو دامت النزهة على الماء فترة اطول ! - ليتني نهضت ولبست ثيابي قبل الان ! - ليتني اكلت الكرز كله بدل ان اقدمه لعمي ! » . لكن الحلم لا يقف عند صيغة التمني هذه ، بل يتجاوزها ايضا الى تحقيق الرغبة ، ويقدم لنا هذا التحقيق في شكل واقعي وراهن . وغالبا ما تتمثل المواد التي يستخدمها الحلم لتصوير تحقيق الرغبة في مواقف وصور حواسية ، بصرية على الدوام تقريبا . اذن ، حتى في هذه الفئة من الاحلام يحدث ضرب من تبديل مكاني نستطيع ان نسميه بمل الحلم : اذ تحل صورة راهنة محل فكرة كان وجودها لا يمتد بصيغة التمني .

التعارضات بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن الى رغائب متحققة .

ان لعمل الحلم تأثيرا يبعث على دهشة اكبر ايضا ، وإليه ترجع ، بلا ادنى شك ، احلامنا الاكثر تفككا وعدم ارتباط . لناخذ حلما من الاحلام ، ولنحص عدد صورته ، اما بصورة مباشرة وإما عن طريق تسجيلها كتابة ، ولنجر بعد ذلك الحساب نفسه على الافكار الكامنة التي يقدمها التحليل والتي احتفظ الحلم بأثر منها ؛ اذا فعلنا ذلك يتبين لنا ان عمل الحلم قام بضغط ، بتكثيف غريب . ومن الصعب ان نكون صورة مسبقة عن اهمية هذا التكثيف ، ولكنه لن يشير الا المزيد من دهشتنا طردا مع تقدمنا في تحليل الحلم . فمع تقدمنا ، لن نصادف عنصرا واحدا من عناصر مضمونه لا تذهب خيوطه في اتجاهين او ثلاثة اتجاهات ، كما لن نصادف اي موقف غير مستمدة عناصره من تذكّرين او عدة تذكّرات من الحياة الواقعية . لقد حدث لي على سبيل المثال ان رايت في الحلم ما يشبه حوض سباحة كان يبدو على المستحتمين فيه وكأنهم بلوذنون بالفرار من كل جانب . وفي واحد من المواضع ، انحنى واحد من الاشخاص فوق حافة الحوض نحو شخص آخر منهمك في الاستحمام لينتشله خارج الماء . نحن نلاقي هنا تركيبة من ذكرى من عهد بلوغي ومن لوحتين احدهما «مباغثة الاستحمام» من مجموعة لوحات شفيند عن ميلوزينا (مستحمون لائذون بالفرار من كل جانب) ، والاخرى هي «الطوفان» من المدرسة الايطالية . وكنت قد رايت واحدة من تلك اللوحات قبل ايام قلائل . اما الحادث البسيط فمرده الى تذكر من مدرسة السباحة والى مشهد المعلم وهو يساعد على الخروج امرأة تأخرت الى ميقات الرجال . وثمة في الحلم ، الذي اخترته مثالا لعمل التحليل ، موقف يبين لنا التحليل ارتباطه بذكريات مختلفة ؛ والحال ان

- ٤ -

وجدنا آنفا ما يحملنا على الاعتقاد بأن بعض الصور التي نصادفها في اكثر احلامنا تفككا وعدم ارتباط هي بدورها نتيجة ابدال مكاني . صحيح اننا نجهل هل كان موضوع هذا الابدال رغبة ما ، ولكن مثال الحلم الأنف الذكر الذي اوغلنا في تحليله بما فيه الكفاية يبدو ، في جانبين على الاقل من جوانبه ، وكأنه يؤكد ذلك الافتراض . انتم تذكرون ان زوجتي ، في تحليل ذلك الحلم ، كانت مهتمة على مائدة الضيافة بأشخاص غرباء اكثر من اهتمامها بي بكثير ، وانني اغتظت من ذلك . وفي الحلم كان عكس ذلك : فالمرأة التي تمثل زوجتي كانت ملتفتة نحوـوي بكليتها . والحال انه اذا كان هناك رغبة يمكن ان تتولد عن حادث يحز في النفس ، فهي الرغبة في حدوث الحادث المعاكس . . . وبالتحديد حادث الحلم . وذلك الشعور الذي اكتشفته عند التحليل ، الضغينة بسبب الحب المجاني المضمون به عليّ ، الا يجد معادله في كلمات الحلم : «كان لك على الدوام عينان في غاية الجمال !» . وهكذا يكون في الامكان ارجاع قسم من

كل واحدة من هذه الذكريات أسهمت بقسطها في مضمون الحلم . فهناك قبل كل شيء الحادث الصغير الذي يعود الى عهد خطوبتي : ملامسة اليد تحت الطاولة التي تحدثت عنها آنفا والتي زودت الحلم بتفصيل «تحت الطاولة» الممكن عزوه الى الذاكرة . اما المرأة «المستديرة تحوي» فلم يكن لها وجود آنذ ؛ والتحليل ينبئني بان هذا التفصيل تحقيق للرغبة عن طريق العكس وبانه يعود الى موقف زوجتي على مائدة المضيف . وخلف هذه الذكرى الحديثة العهد يختبئ مشهد مشابه ، لكنه اعظم مأساوية بكثير ، يعود الى عهد خطوبتنا ، وقد تسبب في تخصمنا طوال يوم كامل . اما حركة اليد الليفة التي لامست ركبتي فانها تستدعي الى الذاكرة اشخاصا آخرين وتداعيات افكار اخرى ؛ اذ تغدو بدورها نقطة انطلاق لسلسلتين من الذكريات مختلفتين كل الاختلاف ؛ وهكذا دواليك .

من الضروري بالطبع ان تكون التفاصيل ، المفتبسة عن الافكار الكامنة ، والمحدثة باجتماعها موقفا حلميا ، من الضروري ان تكون صالحة قبلها للاستعمال . والشرط الاول لذلك هو وجود عنصر مشترك ، بل عدة عناصر مشتركة ، في جميع تلك المركبات . عندئذ يلجأ عمل الحلم الى نفس الطريقة التي لجأ اليها فرنسيس غالتون في صورته الفوتوغرافية العائلية ؛ فهو سيركّب بين العناصر على نحو تبرز معه بجلاء تام النفط المركزية المشتركة بين جميع الصور المتناضد بعضها فوق بعض ، بينما ستؤول العناصر المتناقضة ، المنعزلة ، الى التلاشي والاضمحلال بقدر او بآخر . وطريقة التركيب هذه تفسر جزئيا الطابع الغامض والغائم لتفاصيل الحلم الثانوية .

لقد استفدت من الملاحظات الآتية لتكون اساسا اقيم عليه واحدة من قواعد تأويل الحلم : فحين نجد انفسنا اثناء تحليل افكار الحلم امام خيار بين امرين ، علينا ان ندرك ان هذا الخيار ما هو الا اثبات مقنّع ، وان نستبدل ال «او» بـ «و» ، وأن

نتخذ من كلا حدي الإحراج الكاذب نقطة انطلاق لسلسلات جديدة من التداعيات .

وحتى اذا لم يكن بين الافكار الكامنة نقطة مشتركة ، يتوصل العمل الحلمى ، الرامي على الدوام الى تشكيل صورة واحدة ، الى الدمج بين تلك الافكار وصهرها في فكرة واحدة . والحيلة التي يستخدمها ليجمع على هذا النحو بين فكرتين ليس بينهما شيء مشترك تكمن في تغيير التعبير الشفهي لواحدة منهما ، بل لكليتهما معا في احيان كثيرة . ومثل هذا العمل يرتد في خاتمة المطاف الى صب صورتين متنافرتين في قالب واحد لشكل لغوي واحد . وفي مقدورنا ، اذا شئنا ، ان نشبه هذه الوظيفة بوظيفة جامع القوافي الذي يلقي في توافق الاصوات الوحدة المنشودة .

يكمن الشطر الاكبر من عمل الحلم في خلق تحولات وانتقالات في غاية الدهاء احيانا ، لكن تبدو لنا مع ذلك في كثير من الاحيان متصنعة . وهي تفيد في الوصل والربط بين مضمون الحلم وبين الفكرة الكامنة نفسها ، المختلفة في شكلها وفي مادتها ، المصاغة من قبل الظروف التي استدعت الحلم . وبمتابعة تحليل حلمنا النموذجي التقى بفكرة جرى تشويهاها بفرض مطابقتها مع فكرة اخرى غريبة كل الغرابة عن الاولى . فبين الافكار التي افضى اليها التحليل الفكرة التالية : ان اتمتع اذن ابدا ، كما يتمتع الآخرون ، بهبة مجانية ؟ بيد ان هذه الصيغة غير صالحة للاستعمال بالنسبة الى مضمون الحلم ، وعليه يتم استبدالها بالصيغة التالية : ان اتمتع ابدا بشيء لن يتوجب عليّ ان ادفع تكاليفه ؟ وسوف تتخذ كلمة «تكاليف» معنى جديدا كي تدخل في حلقة الافكار المرتبطة بمائدة المضيف ، وسوف يمثلها فيها السبانخ المقدم على المائدة . وبالفعل ، حين يرفض الاطفال عندنا ان يمسوا طعاما مقدما اليهم ، تسعى امهم

الى اخذهم باللين والنعمومة وتقنهم بأن «يتذوقوا» (١) منه قليلا . ومن المثير للاستغراب ان نرى العمل الحلمى يستخدم بلا تردد معنيين لكلمة واحدة ، لكن ستبين لنا التجربة عما قليل ان ذلك كثير ومتواتر .

وفي مقدورنا ايضا ان نفسر ، عن طريق عمل التكثيف ، بعض الصور الخاصة بالحلم التي تجهلها حالة اليقظة جهلا تاما . هذه الصور تتمثل في الوجوه البشرية المتعددة الشخصيات او المزيجة ، وكذلك في تلك التصاميم الغريبة المتنافرة العناصر التي لا تمكن مقارنتها الا بالالوان الحيوانية التي ابدعتها مخيلة شعوب الشرق ؛ لكن هذه الالوان الاخيرة تتبلور مرة واحدة ونهائية ، بينما يبدو على ابتكارات الحلم وكأنها تستعير اشكالا جديدة على الدوام من خيال لا ينضب له معين .

من منا لم يصادف في احلامه الذاتية صورا من هذا النوع؟ انها تنتج عن اكثر التركيبات تباينا وتنوعا . ففسي وسعي ان اولف وجها واحدا من قسّمات مقتبسة من عدة وجوه ؛ ومن الممكن ان ارى في الحلم سحنة معروفة واعطيها اسم شخص آخر ، كما انه من الممكن ان اتعرفها تماما واضعها في الوقت نفسه في موقف يجابهه في الواقع شخص آخر . وفي مختلف هذه الحالات ، نجد ان تكثيف عدة اشخاص في شخص واحد يضفي ضربا من التكافؤ على اولئك الاشخاص جميعا ، واضعا اياهم ، من وجهة نظر خاصة ، في سوية واحدة . ومن الممكن ان يشير مضمون الحلم الى هذا التكافؤ ، لكن اكتشافه لا يتم في احيان كثيرة الا بواسطة التحليل ، ولا شيء يميظ اللثام عنه في الحلم ان لم يطمه الوجه المنسوب الى الشخص الجماعي .

ان هذه القاعدة الواحدة وهذه الطرق المتعددة في التركيب تنطبق ايضا على جميع الصور المتنافرة العناصر التي يرمل بها الحلم والتي لا داعي لضرب امثلة عليها . وهذه الصور تبدو لنا اقل غرابة بمجرد عزوفنا عن مماثلتها بمواضيع ادراكنا في حالة اليقظة ، لننتذكر انها ناجمة عن عمل الحلم التكثيفي وان الغرض منها ابراز الطابع المشترك بين مختلف مواضيع التركيب ، وذلك على نحو مقتضب واخاذ . والتحليل هو الذي سيتيح لنا ان نكتشف ذلك الطابع العام ، لان كل ما نستطيع ان نستخلصه ، في معظم الاحيان ، من مضمون الحلم هو ان هناك مجهولا ، قيمة (س) مشتركة بين جميع تلك الصور الملفقة المتنافرة . والتحليل ، بتفكيكه اوصال هذه الصور ، سيقودنا مباشرة الى تأويل الحلم .

لنأخذ مثالا . حلمت بأنني جالس على مقعد بصحبة واحد من قدامى اساتذتي في الجامعة ، وان ذلك المقعد كان مقدوبا به الى الامام بحركة سريعة ، مثله مثل العديد من المقاعد الاخرى . انني اعتقد ان في مقدوري ، اذا ما ضربت صفحا عن تداعيات الافكار التي قادني الى الخلو الى ما خلصت عليه ، ان اؤكد ان في ذلك الحلم تركيبا بين قاعة الدروس والرصيف الآلي المتحرك . وفي حلم آخر ارى نفسي جالسا على مقعد في مقصورة في قطار حديدي ، واضعا قبعتي على ركبتي . قبعة سهرة من البلور الشفاف . وقد حملتني هذه الصورة بادىء الامر على التفكير بالمثل القائل : «اخفض قبعتك (١) فتحصل على كل ما تريد في هذه الدنيا» . اما الاسطوانة الزجاجية فقد وجهت فكري ، من دون لف او دوران كثير ، نحو مصباح

١ - جناس غير قابل للترجمة بين «تذوق» و«تكلفة» بالالمانية . «م» .

١ - مجاز يقابله بالعربية قولنا : ارق ماء وجهك . «م» .

آور (٢) ، ومن ثم الى ابن جلدتي الدكتور آور فون ولشباخ .
وقلت بيني وبين نفسي انه لن يحنقني أن اخترع مثله اختراعا
يجعلني غنيا ومستقلا ... وفي هذه الحال سأطوف عبر العالم
بدل البقاء في فيينا . وفي الحلم ، سافرت مع اختراعي ، تلك
القبة الزجاجية ، التي ما يزال نفعها موضع نقاش .
كذلك لا يندر ان يروق للعمل الحلمي ان يؤلف صورة
مزيجة ملفقة من فكرتين متناقضتين ، وعلى سبيل المثال ، حلم
تلك المرأة الصبية التي رأت نفسها تحمل غصنا مزهرا هو نفس
الفصن الذي يحمله الملاك في لوحات البشارة (رمز البراءة :
فتلك المرأة تدعى مريم) . بيد ان الفصن كان يحمل زهورا
بيضا وثقيلة شبيهة بزهور الكاميليا (نقيض البراءة : غادة
الكاميليا) .

ان شطرا كبيرا من اكتشافاتنا بصدد عمل التكثيف في الحلم
يمكن تلخيصه على النحو الآتي :

ان مادة الحلم الكامنة هي التي تحدد المضمون الظاهر حتى
في أدق تفاصيله تقريبا ، وكل تفصيل من هذه التفاصيل لا
يشتمل من فكرة منعزلة ، وانما من عدة افكار مقتبسة من تلك
المادة الاساسية وغير مترابطة فيما بينها بالضرورة . بل من
الممكن ان تكون منتزعة الى أشد ميادين الافكار الكامنة اختلافا .
ان كل تفصيل من تفاصيل الحلم هو ، بكل معنى الكلمة ، تمثيل
في مضمون الحلم لزمرة من زمر الافكار المتنافرة تلك .

لكن التحليل يكشف لنا ايضا عن خاصية اخرى لتلك
المبادلات المعقدة بين مضمون الحلم والافكار الكامنة . فالى
جانب تلك الخيوط المتضاربة المنطلقة من كل تفصيل من تفاصيل

٢ - آور فون ولشباخ : كيميائي فييناوي اخترع المصباح المتوهج

المعروف باسمه (١٨٥٨ - ١٩٢٩) . «م»

الحلم ، هناك خيوط اخرى تنطلق من الافكار الكامنة وتتجه
متباعدة نحو مضمون الحلم بحيث يمكن لعدة تفاصيل ان تمثل
فكرة كامنة واحدة ، وبحيث تتشكل بين مضمون الحلم
الظاهر ومضمونه الكامن شبكة معقدة من الخيوط المتصالبة .
ان التكثيف يبدو لنا عنصرا مهما ومميزا للعمل الحلمي ،
مثله مثل تحويل الفكرة الى موقف (« الاخراج الدرامي ») ، لكن
ما الدافع الذي يجعل من هذا الضغط او التكثيف ضروريا ؟ لقد
تعذر علينا حتى الان ان نكتشفه .

مناطق الحلم وأظلمها ، هي التي ستنتطح بين سائر الافكار الكامنة لاداء الدور الاول . وفي وسعنا وصف هذه السيرة على النحو التالي :

اثناء قيام الحلم بعمله ، تنتقل الشدة النفسية للافكار والتصورات التي هي موضوع عمل الحلم لتتلبس افكارا وتصورات اخرى هي بالضبط تلك التي ما كنا نتوقع البتة ان نراها تاخذ مثل تلك الحدة والكثافة .

ان انتقال النبوة النفسية هذا هو الذي يسهم بأوفر قسط في تعميم معنى الحلم وفي الحيلولة دون تعرف العلاقات بين الحلم الظاهر والحلم الكامن .

اثناء تلك العملية ، التي اسميها بالنقل في الحلم ، ارى ايضا الشدة النفسية او الوجدانية للفكرة الكامنة تتحول الى بلبلية مادية ؛ وفي الوقت الذي اجد فيه نفسي مدفوعا بأكثر من اغراء الى ان اعتبر ان الاكثر وضوحا وجلاء هو الاساسي والجوهري ، اتبين انه ينبغي البحث على العكس في تفصيل غامض مبهم عن بديل فكرة الحلم الاساسية .

ان ما اسميه بنقل الحلم استطيع ان اسميه ايضا بقلب القيم . والظاهرة تستأهل ان نتوقف عندها . سأضيف القول ، اذن ، انني صادفت في التحاليل التي اجريتها لاحلام متباينة جميع درجات النقل والقلب . فهناك احلام لا يكاد يحدث فيها نقل او قلب ، وهي الاحلام المعقولة والمفهومة كتلك التي اتيت بذكرها في البداية والتي لا تعدو ان تكون رغبات معبرا عنها تعبيرا سافرا . وفي احلام اخرى لا نجد ، على العكس ، عنصرا واحدا احتفظ بقيمته الحقيقية ؛ فكل ما كان جوهريا واساسيا في الافكار الكامنة نجده ممثلا بتفاصيل ثانوية ، ونكتشف بين هذه التفاصيل وتلك الافكار سلسلة هامة من التداعيات . وكلما كان الحلم اشد إيهاما وغموضا وتشوشا ، توجب علينا ان نقيم

ان ما نلاحظه في الاحلام المعقدة والمشوشة التي نهتم بها الان من تنافر بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن لا يمكن ان يعزى الى ضرورة التكثيف والاعراج الدرامي وحدها . بل ثمة مؤشرات معينة - في الاشارة اليها فائدة - تشهد على وجود عامل ثالث .

لنلاحظ اولا اننا حين توصلنا بطريق التحليل الى معرفة الافكار الكامنة، بدت لنا من طبيعة مغايرة تماما لطبيعة مضمون الحلم الظاهر . لكن ذلك لا يعدو ان يكون انطبعا اول سيتبدد غيب التمحيص ، لاننا نجد في نهاية المطاف ان كل مضمون الحلم تفسره الافكار الكامنة ، وان معظم الافكار الكامنة ممثلة في المضمون الظاهر . بيد ان ثمة فارقا يظل قائما : فما يعمل الحلم على تطويره وإبرازه في تفاصيله ، وكأنه يرغب في ان يجعل منه جوهر مضمونه ، هو عينه ما سيلعب ، بعد التحليل وفي افكار الكامنة ، دورا ثانويا تماما ؛ وعلى النقيض من ذلك نجد ان الكناية التي تكاد لا تدرك ، الكناية التي لا تكاد تفارق اعتم

المزيد من الاعتبار ، بغية تأويله ، لعملية الإبدال المكاني .
لقد تم النقل ، في الحلم الذي أخضعناه للتحليل ، على نحو
تركز معه مضمون الحلم الظاهر في نقطة مغايرة تماما لتلك التي
تركز فيها مضمونه الكامن . فأول ما يبرزه لنا الحلم موقف ،
موقف المرأة التي يبدو عليها أنها تريد أن تمهد لوصال بيننا ؛ أما
ما يحتل مكانة الصدارة في الأفكار الكامنة فهو الأمنية التي
عبرت عنها في حب متجرد ، حب «لا يكلف شيئا» ، وهذه
الفكرة تختفي خلف الجملة المتعلقة بـ «العينين الجميلتين»
وخلف كناية «السبانخ» .

ان تحليل الحلم ، الذي اتاح لنا ان نمسك بالمنظور الاصلي،
وضعنا على طريق الحل الافضل لمعضلتين يدور حولهما نقاش
حامي الوطيس ، معضلة الحض على الحلم ومعضلة العلاقات بين
الحلم وحياة اليقظة . فثمة احلام تنم عن ارتباط مباشر بأحداث
اليوم ، وثمة احلام اخرى لا تبدو الاحداث تلعب فيها دورا
كبيرا . وعندما نستنجد في هذه الحال بالتحليل ، نتبين ان
جميع الاحلام بلا استثناء يكمن جذرها في انطباع تم تلفيه في
العشية ، او بالاحرى اثناء النهار السابق للحلم . هذا الانطباع،
الذي يمكن ان يسمى بالمحرض على الحلم ، يكون احيانا قويا الى
درجة لا نمجب معها من كونه شغل اهتمامنا اثناء حالة اليقظة ؛
وفي هذه الحال نقول بصواب ان حلم الليل ان هو الا استمرار
لمشاغل النهار . لكن مضمون الحلم لا يسترجع في غالب الاحيان
من انطباعات النهار سوى تفصيل صغير وعديم الدلالة الى درجة
تقتضي منا ان نقوم بجهد كي نعود الى تذكره ؛ وفي هذه الحال
يبدو لنا مضمون الحلم ، وان يكن متماسكا ومفهوما ، مؤلفا من
ترهات وسفاسف كثيرة الى درجة ينتفي معها داعي الدهشة
اذا ما رأينا الناس ينظرون بعين الازدراء عامة الى جميع
التظاهرات التي هي من هذا القبيل .
بيد ان التحليل يأتي ليكذب هذا الحكم بكشفه عما يختفي

وراء الظواهر : فمن الممكن ، في وهلة اولى ، ان نحسب ان
ظرفا تافها غير ذي شأن ، لكنه يحتل مكانة الصدارة ، هو
الحافز الذي حض على الحلم . بيد اننا سرعان ما سنكتشف ،
بواسطة التحليل ، السبب الحقيقي للحلم ، اي الظرف الذي
كان على درجة كافية من الاهمية لاستثارته والذي حل محله
الظرف الآخر لان بينهما العديد من نقاط التماس . وحين
يتبدى مضمون الحلم في شكل مجرد من المعنى والفائدة ، يميل
التحليل اللثام عن الدروب الجانبية التي تسلكها هذه العناصر
العديدة القيمة لتنضم الى عناصر اخرى لها اهميتها القصوى
بالنسبة الى سيكولوجيا الفرد الذي يحلم . وانما الى عمل النقل
ترجع علة ما يحدث في مضمون الحلم من ابدال للواقعة المثيرة
للانفعال بالحدث التافه ، وللمواد المثيرة للاهتمام بالمواد التي لا
اهمية لها . واستنادا الى هذا المكتسب الجديد نستطيع ، على
ما يخيل اليّ ، ان نخطو الخطوة الاولى نحو حل المعضلة
المزدوجة ، معضلة الحض على الحلم ومعضلة العلاقات بين الحلم
والحياة اليومية ، وان نقول :

**ان الاشياء التي لا تثير الاهتمام اثناء النهار لا تصبح مثيرة
للاهتمام بالنسبة الى الحلم ، وان الترهات التي لا تؤثر فينا في
حالة اليقظة يستحيل ان تلاحقنا اثناء رقادنا .**

ولنعد الى المثال الذي اقترحناه موضوعا للتحليل ولنتساءل:
ماذا يمكن ان يكون المحرض على الحلم ؟ انه يتمثل في واقعة
غير ذات شأن ، حين عرض على صديق من الاصدقاء القيام
بجولة مجانية في العربية . والموقف الحلمى ، اي مائدة المضيف،
كناية عن تلك الواقعة غير ذات الشأن ، على اعتبار انني اقامت
توازيا ، اثناء حديثي مع الصديق المذكور ، بين العداد ومائدة
المضيف . اما الواقعة الاساسية التي تختبئ هنا فتمثل في
انني انفقت ، قبل ايام قليلة ، مئلفا كبيرا من المال على شخص

من افراد عائلتي يعز عليّ . وفي عداد الافكار الكامنة اجد افتراضي بأن ذلك الشخص المدين لي بالفضل سيعرب لي عن عرفانه بالجميل ، ولكن من دون ان تكون مشاعره نحوي منزهة عن الغرض . والحب المتجرد هو الذي يحتل مكانة الصدارة في مضمون الحلم الكامن . وكنت قد صحبت ذلك الشخص في مناسبات عدة في العربة ، وهكذا تكون الجولة التي قمت بها عشية مع احد الاصدقاء قد اعادت الى ذاكرتي الجولات التي قمت بها في وقت سابق . والحادث التافه ، الذي تحول الى محرض على الحلم بفعل عملية ربط ووصل من ذلك النوع ، يخضع لشرط منعدم الوجود بالنسبة الى منبع الحلم الحقيقي: اذ لا بد بالاحتم والضرورة ان يكون قد حدث عشية الحلم .

ولن ادع جانبا فكرة النقل في الحلم هذه من دون ان اشير الى مثال يتضافر فيه التكثيف والابدال المكاني لانتاج صورة حلمية . لقد سبق ان عرضنا الحالة التي تندمج فيها فكرتان حلميتان لهما نقطة تماس واحدة لتدخلا على مضمون الحلم الظاهر صورة مزيجية ، صورة ستتطابق نقطتها المركزية القابلة للفهم مع التفصيل المشترك ، بينما لن يكون هناك من تمثيل في الحلم للتفاصيل الخاصة بكل واحدة من الفكرتين الا بواسطة لواحق مبهمه . واذا انضاف الى عمل التكثيف هذا عمل نقل ، فلن يعود ينجم عن ذلك صورة مزيجية ، وانما صورة وسطى لا يستطيع ان اشبهها ، بدالة الفكرتين البدائيتين ، الا بمحصلة متوازي اضلاع القوى بدالة مركباته .

كان موضوع واحد من احلامي ، على سبيل المثال ، الحقن بالبروبيلين . وعند التحليل لم اجد في البداية من محرض على الحلم سوى ظرف تافه يلعب فيه الاميلين دورا ما . ولكن ذلك لا يفسر كيف تحول الاميلين الى بروبيلين . بيد ان ذكرى زيارتي الاولى لميونخ تنتمي الى حلقات افكار ذلك الحلم عينه ،

وهي الزيارة التي شذت فيها بمنظر البروبيليا (١) وتبيح لنا ظروف التحليل الاخرى ان نقبل بأن تأثير هذه الحلقة الثانية على الاولى هو الذي ادى الى تحول الاميلين الى بروبيلين . وبذلك يكون البروبيلين ، اذا جاز التعبير ، تمثيلا اوسطا للاميلين والبروبيليا ؛ وعبر ضرب من التسوية شق طريقه الى الحلم بسبب الفعل المتواقت للتكثيف والنقل .

واول ما يتطلب هنا حلا ، على ما يخيل الينا ، هو لفز عمل النقل ، او بالاحرى الدوافع التي تجعل هذا العمل ضروريا .

١ - الاميلين اسم فحوم من المجموعة الاتيلينية . والبروبيليا اسم مدخل المعابد او بوابتها عند الاغريق . «م»

على العمل الحلمى ان يخضع لها الافكار الكامنة حتى تصبح قابلة لعرض عيني .

وغالبا ما نعثر في المعين النفسى الذى يفدى هذه الافكار على ذكريات اشياء معاشة ، ذات وقع فى النفس ، يعود اصلها الى الطفولة الاولى . وهذه الاشياء تزود الحلم بموقف يتجلى على الدوام فى شكل عيني ، وهى تؤلف عنصرا بالغ الاهمية ، لانها تمارس على تكوين الحلم تأثيرا فعالا يكون بمثابة نواة تبلور تصطف وتتجمع حولها بقية المادة . وبذلك يسعنا ان نفول ان جميع المواقف تقريبا التى تعرضها علينا احلامنا ليست شيئا آخر سوى نسخ ، مزيدة ومعاد فيها النظر على نطاق واسع ، عن بعض من تلك الذكريات المؤثرة فى النفس . ومن النادر ، على العكس من ذلك ، ان يقدم لنا الحلم صورة صادقة وطبق الاصل عن مشهد من مشاهد حياة اليقظة .

بيد ان مضمون الحلم الطاهر ينطوي ايضا على شيء آخر غير المواقف . اذ تنضاف اليها فيه صور بصرية مجردة ومفككة وغير منلاحمة ، وشذرات من احاديث ، واحيانا جزء من جملة مبتسرة . ولا شك فى ان الامر لن يخلو من فائدة لو استعرضنا بسرعة جميع هذه الوسائل التعبيرية التى هى الوسائىل المستخدمة من قبل العمل الحلمى لارجاع مجموعة الافكار الكامنة الى الشكل الوحيد المطابق للحلم والموائم له .

ان الافكار الكامنة التى يزيح التحليل النعاب عنها تبدو لنا اشبه بمجموع نفسى هندسته متداخلة السى غير ما حدود ، وعناصره تقيم فيما بينها علاقات هى من اشد العلاقات نباينا ، فتارة تحتل مكانة الصدارة وطورا تتراجع الى المؤخرة ، وهى تشكل شروطا واستطرادات وتفسيرات وتبريرات ومتطلبات . وهناك على الدوام تقريبا الى جانب كل مجموعة افكار متداعية مجموعة افكار متداعية اخرى تناقضها ؛ وهذه المادة تتسم فى

- ٦ -

فى وسعنا ، لو انعمنا النظر ، ان نكتشف فى عمل الحلم ظاهرة اخرى اقل فاعلية من ظاهرة النقل ، لكنها تسهم بقسطها هى الاخرى فى تحويل الافكار الكامنة بحيث يتعذر تعرفها . فحين يقودنا التحليل الى التحقق من هوية بعض هذه الافكار ، يندر الا نباغت بادىء الامر بتنكرها الغريب . فهى لا تمثل لنا فى الشكل اللفظى ، البسيط الى ابعد الحدود ، الذى اعتدنا ان نلبسه افكارنا ، بل تجد فى غالب الاحيان وسيلة تعبير رمزية ، وسيلة الشاعر الذى يملأ قصائده بالتشابه والاستعارات . ولا يشق علينا ، على كل حال ، ان نفهم الدافع الى مثل هذا الاستخدام ؛ فنظرا الى ان مضمون الحلم الظاهر لا يتألف الا من مواقف عينية ، فلا مفر من ان تتعرض الافكار الكامنة حتى تأخذ مكانها فيه لعملية تنكير تجعلها قابلة للاستعمال فى التمثيل . ولو ذهب بنا الفكر الى عبارات مقال صحفى او جمل مرافعة فى محكمة التمييز ، ولو تخيلنا امكانية استبدالها بسلسلة من الصور البشرية ، لتكونت لدينا فكرة عن التحولات التى ينبغى

خاتمة المطاف بنفس السمات التي يتسم بها فكرنا في حالة اليقظة . وحتى يتحول هذا كله الى حلم ، فلا بد اولا ان تخضع المادة الحلمية لضغط تكون نتيجته الاولى تكثيف هذه المادة ، ونتيجته الثانية تفتيت عناصرها الداخلية . وهذه العناصر ، المجزأة على هذا النحو الى ما لا نهاية ، ستعيد بناء نفسها على اصعدة جديدة . وفي نهاية المطاف يأتي عمل الفرز والانتخاب ليقصي كل ما لا يتفق من هذه المادة الحلمية الجديدة مع التمثيل العيني وكل ما لا يصلح له . ونظرا الى اصول هذه المادة ، يمكننا ان نرى الى كل السيورة التي اتينا بوصفها على انها سيورة نكوص . فالروابط المنطقية التي كانت تربط الافكار الكامنة فيما بينها تضمحل تماما ما ان يتكون الحلم الظاهر ، اذ لا يعود العمل الحلمى يمارس تأثيره الا على المضمون القابل للاستعمال من الافكار الكامنة . وانما على عاتق التحليل تقع مهمة اعادة بناء التسلسلات والعلاقات المنطقية فيما بين هذه الافكار .

لنلاحظ هنا كم هي محدودة وسائل الحلم التعبيرية ، بالمقارنة مع وسائل الفكر في حالة اليقظة . بيد ان الحلم لا ينكص بوجه عام عن اعادة انتاج العلاقات المنطقية بين مواده ، وفي احيان كثيرة يتوصل الى تمثيلها ؛ لكن لا غنى له ، قبل ان يتمثلها ، عن استبدالها بالاجزاء التي تبدو اكثر مواءمة ومطابقة لتشابكاته وتداخلاته الخاصة . بل في وسعنا ان نقول ان الحلم يبذل قصارى جهده ، ازاء جميع هذه الاجزاء المبسوطة امامه من الافكار ، لكي يلبي مقتضيات المنطق الآمرة . وهو يحشد ، في سبيل ذلك ، جميع مواده في موقف واحد ، وينتج من ثم تجمعا منطقيا بواسطة تقريب في الزمان والمكان . مثله في ذلك تقريبا مثل الرسام الذي يصور مجموعة من الشعراء الملتئم شملهم فوق جبل البرناس ، مع علمه الاكيد ان نماذجه لم تترك قط في قمة جبل وان لوحته رمزية صرف .

ونفس هذا الاسلوب في التصوير يلاحظ في تفاصيل

الحلم . فحين يقرَّب هذا الاخير بين عنصرين ، فهذا معناه ان هناك صلة حميمة بين الافكار الكامنة التي يمثلها هذان العنصران . والجدير بالملاحظة هنا ان جميع الاحلام المحلوم بها في ليلة واحدة ترجع بلا تفر ، عند التحليل ، الى حلقة واحدة من الافكار .

ان الرابطة السببية بين فكرتين يمكن ان تكون محذوفة ، كما يمكن ان تكون مستبدلة بتجاور مقطعين طويلين متنافرين . وكثيرا ما يكون هذان المقطعان مقلوبين ، فيمثل الاول النتيجة والثاني الفرضية . واعتقادنا ان كل تحول مباشر من شيء الى آخر يمثل في الحلم علاقة علة بمعلول .

قلنا آنفا ان الحلم لا يقبل التخيير بين امرين ، وانه حين تبرز فرضيتان ، يدخلهما كليهما في الحلقة نفسها من تداعي الافكار . وبعبارة اخرى ، ان حرف العطف «او» في مضمون الحلم الكامن يُستبدل في المضمون الظاهر بحرف العطف «و» . وتعتبر التصورات المتناقضة عن نفسها في الحلم في صورة عنصر واحد اوجد بصورة دائمة تقريبا (١) . ويبدو ان ال «لا» فيه مجهولة . فالتعارض بين فكرتين ، تناحرهما ، يجد في الحلم تعبيره المميز: اذ يتحول فيه عنصر آخر، كما لو بعد فوات الاوان ، الى نقيضه . وسوف نرى فيما بعد ما الطريقة الاخرى التي يمكن بها للحلم ان يعبر عن التناقض . ولننقل ايضا ان الاحساس باستحالة التحرك ، وهو احساس متواتر ، يدل على ان النائم واقع تحت وطأة دافعين متعاكسي الاتجاه ينجم عنهما

١ - اكد علماء لغة بارزون ان المفاهيم المتناقضة مثل «القوي - الضعيف» و«الداخل - الخارج» لا تملك في اقدم اللغات الانسانية سوى كلمة واحدة للتعبير عنها . فالكلمات البدائية مزدوجة المعاني .

اصطراع في الارادة .

وهناك ايضا عدد محدد من العلاقات التي تبدو انفع من غيرها لاولية تكوين الحلم ، اعني بها التداعيات عن طريق التشابه والتماس والتناظر . والحلم يستخدمها ليدعم بها عمله التكيفي ، ويلم شمل جميع العناصر المتوافقة بقدر او بآخر في وحدة واحدة جديدة .

وغني عن البيان ان هذا التعداد البالغ الايجاز لبعض الملاحظات الاولية لا يكفي لاعطاء فكرة عن العدد اللامتناهي من الوسائل الموجودة في تناول الحلم كي يمثل العلاقات المنطقية بين عناصره . فكل حلم على حدة يقوم من وجهة النظر هذه بعمله الخاص الذي يكون تارة كثير التدقيق وطورا غير متقن ، تارة يتتبع عن كثب الموضوعة المقترحة وطورا ينأى عنها . وهو يستخدم على نطاق اوسع ، في الحالة الاخيرة هذه ، الطرائق التي اتينا بذكرها ، وعندئذ يبدو لنا الحلم على اشد ما يكون من الغموض والابهام وعدم الترابط . لكن الجدير بالملاحظة هو ان المضمون الظاهر حين يشط في عبثيته ولامعقوليته ، وحين ينطوي على تناقض فاضح صارخ ، يكون على الدوام وراء ذلك نية خفية ، وغالبا ما نكتشف تحت ستار هذا الازدراء الظاهر لقواعد المنطق اشارة الى المضمون العقلي افكار الحلم . فالعبث في مضمون الحلم الظاهر يطابق ، في مضمونه الكامن ، شعورا بالمشاكسة او بالحق او بالاحتقار . ولما كان هذا التأويل يقدم لنا خير حجة ضد النظرية التي تبغي ان تعزو الحلم الى نشاط ذهني مبتسر ومفكك ، فمن الواجب ان ندعمه هنا بمثال :

حلمت بأن فتى من معارفي ، م.ه ، تعرض اثناء مجادلة لانتقاد عنيف من قبل خصم هو غوته العظيم بعينه . وكان ذلك التهجم ، في رأينا جميعا ، ظلما بقدر ما هو عنيف . وقد احس م.ه على اثر ذلك

بسمعته تتضاءل شأنا . وقد اشتكى من ذلك بمرارة على مائدة المضيف . بيد ان هذا الحادث لم يؤثر البتة على حماسه لغوته . وقد سعت من جانبي الى تسليط الضوء على بعض نقاط تتصل بالتسلسل التاريخي ، بدت لي بعيدة عن الحقيقة . فقد توفي غوته في عام ١٨٣٢ . وقد دارت مجادلته مع م.ه في زمن سابق . . . لكن م.ه كان في ذلك الوقت فتى يافعا . وبعد امعان التفكير ، يبدو لي انه من المعقول التسليم بأنه كان في الثامنة عشرة من العمر . لكني لا اعرف على وجه التحديد في اي عام نحن . كما ان باقي حسابي يحيط به الظلام . اصف الى ذلك كله ان كل تلك المجادلة متضمنة في كتاب غوته الشهير : «طبيعة» !

ان لامعقولية هذا الحلم تتضح بمزيد من الجلاء ايضا اذا علمنا ان م.ه رجل اعمال صغير السن للغاية ولا يكثر بتاتا بالشعر والادب . وسوف نحاول الان ان نعرض مضمون الحلم ونشرحه عن طريق التحليل ، وان نميط اللثام عن كل المنطق الذي يختبئ وراء تلك اللامعقولية .

١ - رجاني ذات يوم م.ه ، الذي تعرفت اليه على مائدة مضيف ، ان افحص اخاه الاكبر الذي تصدر عنه علائم اختلال عقلي . وفيما كنت اتحدث مع المريض فوجئت به يلمح ، بلا اي استشارة من جانبي ، الى انحرافات اخيه اثناء فتوته . وكنت قد سألته عن تاريخ ميلاده (تاريخ الموت في الحلم) ، وحرصته على اجراء بعض الحسابات امامي حتى آخذ فكرة عن بعض مظاهر الخلل في الذاكرة .

٢ - كانت مجلة طبية ، كنت عضوا فيها ، قد نشرت ،

تحت اسم محرر صغير السن للغاية ، نقدا عنيفا لكتاب واحد من اصدقائي ، ف ، من برلين . وقد سألت رئيس التحرير ان يتدارك الامر ويرد الاعتبار لصديقي ، بيد انه رفض ، مع اعرابه عن شديد اسفه ، القيام بأي شكل من اشكال التصويب . وفي اعقاب ذلك قطعت صلاتي بالمجلة ، لكنني عبرت عن الإمل ، في رسالة الوداع ، ألا تتأثر علاقتنا الشخصية بسبب ذلك الحادث . هنا يكمن المنبع الحقيقي للحلم . فقد حز في نفسي الاستقبال السيء الذي قوبل به كتاب صديقي ، ولاسيما ان هذا الكتاب اشتمل على اكتشاف بيولوجي اعده اساسيا ولم يشرع الزملاء - بعد العديد من الاعوام - بتقديره الا اليوم فقط .

٣ - كانت واحدة من مريضاتي قد روت لي قبيل ذلك الزمن بقليل قصة مرض شقيقها الذي المت به نوبة هذيان حاد بدأت بصرخة : «طبيعة ، طبيعة !» . وقد ارتأى الاطباء ان هذه الصرخة مستوحاة من مطالعة واحد من مؤلفات غوته وتقدم برهانا قاطعا على ان المريض ارهق قواه في دراسته . اما انا فقد بدا لي انه من المعقول ان تؤخذ صرخة ال «طبيعة» تلك بالمعنى الجنسي الذي يعرفه جميع الناس عندنا ، جاهلهم وعالمهم على حد سواء . ولم يخطئني مجرى الاحداث ، لان ذلك التعيس بتر اعضاء التناسلية فيما بعد . وكان في الثامنة عشرة حين حدثت النوبة .

وان ما يختبئ تحت «الانا» ، في المضمون الظاهر لهذا الحلم ، هو شخص ذلك الصديق الذي اساء النقد معاملته . وسأعمل على توضيح بعض النقاط المتعلقة بالتسلسل التاريخي . فكتاب صديقي يعالج على وجه التحديد ، من وجهة نظر بيولوجية ، بعض الظروف الزمانية ؛ ومن ذلك انه يقسم حياة غوته الى عدد محدد من المراحل . والحلم يماهي هذا «الانا» برجل مصاب بشلل عام : «لا اعرف في اي عام نحن» . اذن ، صديقي هو المجنون في الحلم . وهنا نلمس العبث واللامعقولية

لمس اليد . ففي افكار الحلم الكامنة نلقى هذا التأييد الساخر : «اهو الان المأفون ، المجنون ... وأنتم الذين تنتقدونه يا اهل العبقرية ! ليس العكس هو الصحيح بالاحرى ؟» . هذا القلب سيتبناه الحلم الذي سيرينا غوته وهو ينهال بالتقريع الشديد على فتى - موقف لا معقول - مع ان العكس ، اي قيام مراقق بتوجيه الانتقاد الى غوته العظيم ، هو الذي يمكن ان يحصل في ايامنا .

ان الحلم ، كما لاحظت ، لا يستوحى ابدا غير المشاعر الشخصية ؛ وشخصيتي في الحلم الأنف الذكر هي المتمثلة بـ «الانا» حتى قبل شخصية صديقي . واذا كنت قد تقمصت شخصية هذا الصديق ، فهذا لان مصير اكتشافه يرمز في نظري الى نجاح نظريتي الخاصة . فيوم سأعرض هذه النظرية ، التي ترجع الى الجنس علة جميع الاضطرابات السيكوباتية (راجع تشخيصي للمريض الذي في الثامنة عشرة : «طبيعة ، طبيعة ...») ، فلا شك في انني سألاقي الانتقادات نفسها التي أقابلها من اليوم بالذات بشعور السخرية نفسه .

اذا تابعنا تحليل هذا الحلم ، لاحظنا ان جميع ضروب العبث التي يمكن ان نصادفها فيه تعود في اصلها الى شعور هزء او ازدراء . فمعروف ان غوته ابتدع نظريته عن الفقرات القحفية في البندقية حين التقط في الليدو (١) بقايا قحف خروف . والحال ان صديقي يتباهى بأنه نظم ، حين كان طالبا ، حملة صاخبة ليحصل على معاش تقاعدي لاستاذ مسن كان فيما مضى نابها (على وجه التحديد في ذلك الفرع من التشريح المقارن) لكنه بات عاجزا عن التعليم بسبب الشيخوخة . وكانت الحركة التي قام بها صديقي هي وحدها القمينة بتدارك الامر ،

١ - الليدو : مجموعة جزر قرب البندقية تشكل ميناءها . «م»

لانه لم يكن هناك وجود في الجامعات الالمانية - التي تتناسى ان السن ليس ضمانا ضد البلاهة - لسفوف العمر في التعليم الجامعي . وكان قد اتيح لي ، في مستشفى تلك المدينة ، شرف العمل طوال سنوات تحت اشراف رئيس كان قد تحجر منذ زمن طويل وصار ، في رأي الجميع ، ابله ، من دون ان يفكر احد بتجريده من اي من مسؤولياته . والحق ان ثمة علاقة تفرض نفسها بين هذا التفصيل وبين اكتشاف الليدو . فقد التف ذات يوم زملائي الشبان في المستشفى بصدد ذلك الرئيس محاكاة ساخرة لقصيدة غاسنهاور التي كانت رائجة في تلك الايام: «ليس غوته من كتب كهذا ... وليست هذه الاشعار لشيلر ...» الخ .

- ٧ -

لم ننته من دراسة عمل الحلم . اذ لا بد ان نضيف الى كشف المادة النفسية ونقلها واخراجها العيني نشاطا آخر ايضا . وهذا النشاط لا يسهم بالضرورة في كل تكوين حلمي ، ولنقل - من دون ان ندخل في مناقشة تفاصيله - انه كي يسعنا ان نتصوره بشيء من الدقة فلا مناص من التسليم بفرضية - غير صحيحة على الأرجح - تقول بنشاط لا يؤثر على مضمون الحلم الا بعدد ، وإلا بعد ان تكون مختلف اجزاء هذا الحلم قد اخذت شكلها الرمزي . ويمكن عمل الحلم عندئذ في التصرف بتلك الرموز وترتيبها على نحو تتحول معه الى منظومة متلاحمة ، الى تمثيل منظم . هكذا يكتسب الحلم ضربا من واجهة غير كافية في الحقيقة ، ولا تستر جميع اجزائه ؛ بيد انه يتلقى ، عن طريق بعض الوصلات وبعض التعديلات الطفيفة ، تأويلا مؤقتا وتقريبيا . وباختصار ، لا نجد هنا سوى تنكير اريب للافكار الكامنة . وحين نشرع بتحليل ما ، يجب ان يكون همنا الاول التصدي لمثل ذلك التأويل المجاوز الحد في ارفاهه .

ما هو اذن حافز هذا القسم الاخير من العمل ، هذه المراجعة الختامية لمضمون الحلم ؟ من اليسير ان نرى ان الهدف الاوحد من ذلك هو جعل الحلم قابلا للفهم ، ومن هنا ندرك ما طبيعة ذلك النشاط . فهو يؤثر على مضمون الحلم المقدم له بنفس الطريقة التي يؤثر بها نشاطنا النفسي العادي على جميع مواضيع الادراك الحسي ؛ فنشاطنا النفسي يتعقل هذه المواضيع بالاستعانة بما في حوزته من تصورات قبلية، وينظمها حسب حفظها من قابلية الفهم ، مجازفا بالتالي بتزييفها ؛ وهذا لان موضوع الادراك الحسي اذا كان غير قابل للمماثلة مع اي موضوع آخر معروف ، فان تأويله سيكون عرضة للوقوع في اغرب الاخطاء . وكل واحد منا يعلم اننا نعجز عن انعام النظر في مجموعة من الاشارات الغريبة او الكلمات المجهولة من دون ان تحملنا على التفكير للحال بالالفاظ المعروفة التي تشبهها اكثر من غيرها والتي نجد في انفسنا ما يفرينا بمماثلتها بها .

ان الاحلام التي اعيد الشغل بها على هذا النحو من قبل نشاط نفسي مماثل لفكرنا في حالة اليقظة هي احلام «جيدة التركيب» . وهناك احلام اخرى لم يؤثر فيها هذا النشاط ولم يترك بصمته عليها ؛ فلم تبذل اي محاولة لاقرار النظام فيها ولاسباغ معنى عليها ؛ وحين نستيقظ نحكم على الصور التي علقنا في ذاكرتنا بانها مفككة وغير متلاحمة بالمرة . لكن هذه الكومة من المواد المتناثرة لها ، من وجهة نظر التحليل ، نفس القيمة التي لحلم سطحي الترتيب . بل لعل الحالة الاولى ستفنيننا عن مشقة القيام من البداية بعملية تفكيك لترتيب مؤقت .

ولكن يخطيء مع ذلك من لا يريد ان يرى في واجهة الحلم الاولى هذه سوى غلطة او نزوة من نشاطنا النفسي الواعي . فقد استوجب بناؤها ، على العكس ، عددا معيناً من الرغائب

والهواجس والتخيلات المشابهة لتلك التي نلقاها في افكار الحلم الكامنة والتي هي من نفس طبيعة الرغائب والهواجس والتخيلات التي نعرفها في حالة اليقظة ونسميها بحق «احلام يقظة» . هذه الرغائب والتخيلات، التي يكتشفها التحليل في الحلم الليلي، تتبدى لنا فيه في صورة مشاهد طفلية معاد النظر فيها ومحولة بقدر او بآخر . انها هي واجهة الحلم ، ويسهل علينا في اغلب الحالات ان نضع اصبعنا فوراً على نواتها الاساسية التي قامت مواد اخرى بتنكيرها وحجبها ليس الا .

ان اشكال النشاط الاربعة التي اتينا بذكرها هي وحدها التي تؤلف عمل الحلم . نستطيع ، اذن ، ان نعرف هذا العمل بقولنا انه تحويل الافكار الكامنة الى مضمون ظاهر ليس الا . ويترتب على هذا التعريف ان عمل الحلم لا يكون ابداً مبدعاً خلاقاً ، وأنه لا يتخيل شيئاً من عندياته ، ولا يحكم ، ولا يخلص الى نتيجة . وقوام نشاطه تكثيف جميع مواد الحلم ونقلها وتحويرها بفرض تمثيل حواسي . وفي نهاية المطاف ، يضاف الى ذلك كله العمل الترتيبي المتم الذي اشرنا اليه .

وفي الحقيقة ، نصادف في مضمون الحلم عدداً لا بأس به من العناصر التي قد نجد ما يفرينا بأن نعتبرها نتيجة نشاط عقلي محض . لكن التحليل مائل بين ايدينا ليبرهن لنا على ان **هذه العمليات العقلية تمت من قبل في افكار الحلم الكامنة ، وان الحلم اكتفى بنسخها طبق الاصل** . فاذا ما صادفنا في الحلم استنتاجاً منطقياً ، فانه لا يعدو ان يكون استنساخاً لفظياً لمنطق افكار الحلم ؛ وهذا الاستنساخ يبدو لنا وكأنه لا غبار عليه حين يندرج بلا تحريف في مضمون الحلم ، لكنه يمسى عبثياً ومخالفاً للمعقول حين يسحبه عمل الحلم على مواد اخرى . كذلك ، فان وجود عملية حسابية في مضمون الحلم يعني فقط انه كانت هناك عملية حسابية مماثلة بين الافكار الكامنة . والفارق الوحيد ان العملية الحسابية الاخيرة كانت صحيحة ،

بينما نجدها تتمخض عن أغرب النتائج وأكثرها شططا حين نلقاها مجددا في المضمون الظاهر ، وذلك في أعقاب تكثيف عواملها وسحب عملياتها على مواد أخرى . وحتى الأقوال التي نلقاها في مضمون الحلم ليست البتة اقوالا أصلية ، وإنما هي فسيفساء نلفى فيها نبذا مختلفة مقتبسة من أقوال يمكن ان يكون النائم قد نطق بها او سمعها او قراها ؛ فاحتفظت الذاكرة بتلك النبذ ، ونسخها الحلم بحذافيرها ، لكنه نسي موضوعها وحوّل معناه بصورة تبعث على الدهشة العميقة .

ولعل الامر لا يخلو من فائدة اذا دعمنا هذه العوائد الأخيرة ببعض أمثلة :

١ - اليكم حلم واحدة من مرضاي ، وهو حلم حسن الترتيب ، وبريء للغاية للوهلة الأولى :

ذهبت هذه السيدة الى السوق بصحبة طاهيتها التي تحمل السلة . وتقدمت بطلبها الى الجزار ، فأجاب : «هذا ما عاد يوجد منه» ، واراد ان يعطيها قطعة أخرى قال عنها انها من نفس النوع ؛ لكنها رفضت وتحولت عنه الى بائعة الخضار . وقدمت لها هذه المرأة خضرة غريبة المظهر ، ضاربة الى السواد ، ومربوطة في شكل حزمة . فقالت : «لا أريد ان ارى هذا ، لن آخذ منه» .

ان اصل جملة : «هذا ما عاد يوجد منه» يكمن في عيادتي بالذات . فقد كنت قلت بنفسى للمريضة ، قبل ايام قليلة ، ان ذكريات الطفولة الاولى لا تعود موجودة كما هي ، لكن نطل نصادفها في الاحلام وقد تبدل موضعها . اذن ، الجزار هو الذي يمثلني هنا .

وتنتهي الجملة الثانية : «لا اريد ان ارى هذا» الى تداعي افكار آخر . فقد كانت تلك السيدة أثبتت البارحة طاهيتها ، وهي عينها التي تلعب دورا في الحلم ، وقالت لها «اسلكي سلوكا لائقا ؛ لا اريد ان ارى هذا ..» اي لا أسمح ، لا اريد ان ارى مثل هذا السلوك . وقد تعرض القسم المنعدم الدلالة من هذا الكلام لنقل جعله يظهر في مضمون الحلم . اما في افكار الحلم فان القسم الآخر هو وحده الذي لعب دورا ، وإليك كيف حدث ما حدث : فالموقف الذي لم يكن له من وجود الا في مخيلة النائمة ، والذي سلكت فيه انا نفسى تجاه تلك السيدة مسلكا غير لائق بنوع ما ، قد حوله عمل الحلم على نحو بات يصعب معه تعرفه وأسبغ عليه مظهرا بريئا تماما . وما ذلك الموقف المتخيل بدوره الا محاكاة لموقف وجدت فيه المريضة نفسها فعلا في زمن سابق .

٢ - اليكم حلما عديم الدلالة في الظاهر ، تظهر فيه أرقام :

حلمت امرأة بأنها تريد ان تسدد دفعة ما ، فأخذت ابنتها كيس النقود من يديها وأخرجت منه ٣ فلورانات و٦٥ كروزيرا . عندئذ قالت لها : «ماذا تفعلين ؟ هذا لا يكلف سوى ٢١ كروزيرا !» .

كانت تلك المرأة اجنبية . وكانت قد وضعت ابنتها فسي معهد للبنات في فيينا ، وعقدت العزم على الاستمرار فسي المعالجة عندي ما دامت طفلتها مقيمة في تلك المدينة . وفي عشية الحلم ، سألتها مديرة المدرسة الداخلية هل تزمع ان تترك لها ابنتها عاما آخر ، مما يعني ان امد معالجتها عندي سيطول لمدة عام ايضا . وحتى نجد معنى لارقام الحلم ينبغي ان نتذكر قول القائل ان «الوقت من فضة» . والسنة تتألف من ٣٦٥ يوما . واذا ترجمنا ذلك الى كروزيرات تكون النتيجة ٣٦٥

كروزيरा ، او ٣ فلورانات و ٦٥ كروزيرا . اما ال « ٢١ كروزيرا »
فهي تناظر ال « ٣ اسابيع » التي كانت لا تزال تفصل في تلك
اللحظة يوم الحلم عن نهاية الدروس وعن نهاية المعالجة عندي .
وظاهر للعيان ان اعتبارات مالية هي التي جعلت تلك السيدة
تقرر رفض اقتراح المديرية ، وهي التي حددت ايضا ضالة المبلغ
المدفوع في الحلم .

٣ - علمت امرأة في مقتبل العمر ، مضى على
زواجها عدة سنوات ، ان واحدة من معارفها
تضاهيها عمرا ، الأنسة إليز. ل ، قد عقدت
خطوبتها . وفي الليلة التالية حلمت انها في المسرح
مع زوجها . وكان عدد لا بأس به من المقاعد في
الصالة لا يزال خاليا . وقال الزوج ان إليز. ل
وخطيبها كانا يزعمان المجيء ، ولكن لم يكن قد تبقى
الا مقاعد ب ١ فلوران و ٥٠ كروزيرا لكل ثلاثة ،
فارتأيا انه من غير الممكن القبول بتلك المقاعد .
فأجابته قائلة ان المصيبة ليست كبيرة .

ان ما يستأثر باهتمامنا هنا ان نعلم كيف يعود اصل الارقام
الى افكار الحلم الكامنة ، وما التحولات التي طرات على هذه
الارقام . من اين جاء مبلغ ال ١ فلوران وال ٥٠ كروزيرا ؟ جاء
من حادث غير ذي شأن حدث عشية : فقد تلقت اخت زوج تلك
السيدة هدية من زوجها مقدارها ١٥٠ فلورانا ، فأسرعت تنفقها
لشراء حلية . ولنلاحظ ان ١٥٠ فلورانا تعادل مئة ضعف
١ فلوران و ٥٠ كروزيرا . اما بالنسبة الى الرقم ٣ المقترن
بسم تذاكر المسرح ، فلا نجد سوى تداع واحد : فالخطيبة ،
إليز. ل ، تصفر صديقتها بثلاثة شهور . وموقف الحلم يحاكي

مغامرة بسيطة كانت لاكثر من مرة سببا لمضايقات بين الزوجين:
فقد كانت المرأة الصبية تعجلت شراء تذاكر المسرح سلفا ودخلت
الى القاعة في وقت كان لا يزال فيه جانب كامل من الصالة
خاليا . لم تكن هناك فائدة ترجى اذن من التعجل . ولنلاحظ
اخيرا ان هذا الحلم ينطوي على ضرب من العبث : قيام شخصين
بشراء ثلاث بطاقات دخول الى المسرح !

لا شك في ان افكار الحلم الكامنة هي التالية : « اكنت بلهاء
اذ تزوجت مبكرا ! ما كانت حاجتي الى هذا القدر من التعجل ؟
ان مثال إليز. ل دليل على انه كان في وسمي على الدوام في
النهاية ان اجد زوجا ، وما كان عليّ الا ان انتظر ، ولو كنت
فعلت لحصلت على (زوج او حلية) افضل بمئة مرة . ومقابل
ذلك المال (البائنة) كان في وسمي ان اشترى ثلاثة ! » .

اذا علمنا انه من الممكن ان تحدث بدون وساطة الحلم وبدون وساطة المرض ، وان عددا لا بأس به من الظواهر الخاصة بالحياة اليومية للأفراد الاسوياء ، كضروب النسيان وزلات اللسان وهفوات السلوك ، يتكون بنفس الأولية التي يتكون بها الحلم وجميع الاعراض المرضية المشار اليها اعلاه .

ان عقدة العضلة تكمن في سيرورة النقل ، وهي السيرورة التي تستأهل منا ، على ما نحسب ، اكبر قدر ممكن من الاهتمام . فلمعرفة الشرط الاساسي للنقل ، لا بد من تناول المشكلة من وجهة نظر سيكولوجية خالصة . وسوف يتضح لنا في هذه الحال ان تلك الظاهرة تحدث فقط تحت سطوة **الضرورة** ، ويتوجب علينا ، حتى نفهمها ، ان نحاول تذييل بعض الصعوبات التي لا يفلت منها الا بمشقة من يدرس الاحلام .

حين قدمت ، في مستهل هذا البحث ، واحدا من احلامي مثالا على التحليل ، اضطررت الى ايقاف عملية جرد افكاري الكامنة لان بينها افكارا أثرت ان اكتمها ، وما كان في مستطاعي ان اجاهر بها من دون ان اتعدى حدود اللياقة . وقد اضفت قولتي انه لا جدوى تجتنى من استبدال ذلك التحليل بتحليل آخر ، لانني سأصطدم في نهاية المطاف ، وايا يكن الحلم الواقع عليه الاختيار ، حتى ولو كان اكثر الاحلام غموضا وتشوشا ، بأفكار كامنة لا يستطيع افشاء سرها من دون ان أخرج عن حدود الرصانة . بيد انني بعد ان نحيت جانبا الشهود على هذه المشاحنات الداخلية الحميمة ، تابعت التحليل بيني وبين نفسي ، فلقيت افكارا أثارت عميق دهشتي . فانا ما كنت أعرف لي افكارا كذلك ؛ وقد بدت لي لا غريبة عني فحسب ، بل **مؤلة** تحز في النفس ايضا ؛ وقد رحت ادافعها عني بكل ما أوتيت من قوة ، بيد انني شعرت انها تفرض نفسها عليّ فرضا بقوة منطق الافكار الكامنة . وانا لا استطيع تفسيرها لهذا الامر الا بطريقة واحدة ، وذلك بالتسليم بأن تلك الافكار وجدت فعلا

- ٨ -

بعد استعراضنا لطرائق عمل الحلم ، قد نجد ما يفرينا بأن نرى في هذا العمل سيرورة نفسية خاصة لا يمكن مقارنتها ، على حد علمنا . بأي شيء آخر . ولعله لن يتخلف عن ان يبعث فينا بعض الدهشة النظرية التي طالما بعثها ، على مر الازمان ، نناجيه ، اي الحلم نفسه .

في الواقع ، ليس عمل الحلم سوى السيرورة الاولى التي حظيت بأكبر قدر من الدراسة بين سلسلة من السيرورات النفسية ، هي على وجه التحديد تلك التي يرتد اليها انتاج الاعراض الهستيرية وضروب الحصر والوساوس والاختلالات العقلية ، الخ . فجميع هذه السيرورات تتجلى فيها ايضا خواص التكثيف والنقل ، وعلى الاخص الاخير ؛ فيما يبقى التحوير بفرض التمثيل الحواسي وقفا على عمل الحلم .

اذا كانت سيرورة الحلم اذن هي السيرورة عينها التي تتولد عنها الصور المرضية ، فلن تكون الفائدة المجتناة من تحديد الشروط التي تتم فيها الا اكبر واعظم . ولن تكون دهشتنا قليلة

فيّ ، وبأنها تحظى في داخلي بشيء من الشدة أو القوة النفسية ، ولكنها في موقف نفسي خاص تجاهي يحول بيني وبين وعيها . هذا الموقف الخاص ، أطلق عليه اسم **حالة الكبت** . وعندئذ لا أجد مناصا من الاقرار بأن هناك علاقة علة بمعلول بين غموض الحلم الظاهر وحالة كبت الافكار الكامنة ، اي بعبارة اخرى النفور الذي يخالجنى من ادراك هذه الافكار ووعيها . واخلص من ذلك كله الى الاستنتاج بأنه اذا كان الحلم غامضا ، فهذا بداعي الضرورة وتحاشيا للافصاح عن بعض الافكار الكامنة التي **يستعجنها وعيي** . هكذا ينجلي سر عمل **التحريف** الذي هو اشبه ما يكون ، بالنسبة الى الحلم ، **بتنكير** حقيقي .

ولن تكون الفائدة معدومة لو فتشنا ، في الحلم الذي اقترحتة للتحليل ، عن تلك الفكرة من افكاري التي لا تبدى الا متكررة خشية ان اقابلها بشجب عنيف فيما لو تبدت بلا قناع ولا حجاب . انني اعلم ان الجولة التي تكلمت عنها ، تلك الجولة المجانية في العربية ، قد ذكرتني بجولات اخرى اكثر تكلفا بصحبة شخص من اسرتي ، وان دلالة الحلم تبدو كالتالي : «بودي ان اعرف حبا متجردا» . والحال انني كنت قد انفقت ، قبل ان احلم هذا الحلم بزمن قليل ، مبلغا كبيرا من المال على الشخص المذكور . وحيال هذا التداعي في الافكار اجدني مرغما على الاقرار بيني وبين نفسي بأنني آسف على انفاق ما انفقته . وانما عندما اقر بإحساس كهذا استطيع ان اتوصل الى فهم ما تعنيه ، في حلمي ، الرغبة في حب لا يستدعي نفقة . هذا مع انه في وسعي ان اقول بكل صراحة انني لم اتردد دقيقة واحدة في انفاق ذلك المبلغ ، والاسف الذي انتابني على ذلك يؤسف جزءا من تيار لم يمس وعيي ، ولو مسا خفيفا . لماذا لم يفعل ذلك ؟ هذه في الحق مسألة اخرى ، وقمينة بأن تتوغل بنا الى ابعاد مما ينبغي . والجواب الذي يسعني ان أجده لها ينتمي الى

تداعي افكار آخر .

لو حللت ، بدلا من حلمي الخاص ، حلم شخص غريب ، لتوصلت الى استنتاجات مماثلة ؛ ووسائلتي في الفحص والتدقيق هي وحدها التي ستكون مختلفة بعض الشيء . فاذا كان الحلم المطلوب تفسيره حلم شخص سوي ، امكنني ان اقود هذا الشخص ، ببياني له تسلسل افكار الحلم وتربطها ، الى تعرف افكاره المكبوتة . على انه سيبقى حرا في نفيها وإنكارها رغم كل شيء . اما اذا كان صاحب الحلم مريضا عصبيا ، يشكو من الهستيريا على سبيل المثال ، فلا مناص ، لحمله على تعرف الافكار **المكبوتة** ، من ان ابين له العلاقة القائمة بين هذه الافكار وبين اعراض مرضه ، ومن ان الح كذلك على واقع ان حالته تحسنت بمجرد ان حلت الافكار المكبوتة محل الاعراض .

لنعد الى مثال تلك المرأة الصبية التي روت لي حلم تذاكر المسرح الثلاث بـ ١ فلوران و٥٠ كروزيلا . فقد اظهر تحليل افكارها الكامنة انها لا تحفل بزوجها ولا تأبه له بتاتا ، وانها تفضل لو انها لم تتزوجه ، وانها لن تأسف لو حل محله آخر . صحيح انها تزعم انها تحبه ؛ فلا تهترف بأن الازدراء الذي تعامله به (غيره يمكن ان يكون «افضل بمئة مرة» !) يمكن ان يمس ولو بأي صورة من الصور حياتها العاطفية ؛ لكن جميع اعراضها تقود الى نفس حل ذلك الحلم ؛ وحسبنا ان نوقف فيها الذكريات المكبوتة العائدة الى عهد كانت فيه على اتم وعي بأنها لا تحب زوجها ، حتى تنحل الاعراض وحتى تكف المريضة عن الاحتجاج على تأويلي .

هذه الاحلام بقولنا انها **تحقيق مقنع لرغبات مكبوتة** . ولنلاحظ فضلا عن ذلك ، وهذا امر مثير للاهتمام ، ان الحكمة الشعبية تصيب حين تقول ان الاحلام تتكهن بالمستقبل . فبالفعل ، ان ما يظهره لنا الحلم هو المستقبل ، لا كما سيتحقق ، وانما كما نتمنى ان نراه متحققا ؛ والروح الشعبية تفعل هنا ما اعتادت ان تفعله في مواضع اخرى : فهي تصدق ما ترغب فيه .

من الممكن تقسيم الاحلام ، من منظور تحقيق الرغبات ، الى ثلاث فئات : فلدينا اولا الحلم الذي يمثل بلا تنكر رغبة غير مكبوتة ، وهو الحلم من النمط الطفلي ، وينزع الى التنادر كلما تقدم الطفل في العمر . ولدينا ثانيا الحلم الذي يمثل رغبة مكبوتة في إهاب تنكري . وغالبية احلامنا تنتمي الى هذا النمط ، ولهذا لا يمكن فهمها بلا تحليل . ويأتي ثالثا واخيرا الحلم الذي يعبر عن رغبة مكبوتة ولكن **من دون ان ينكرها أو لا ينكرها الا بأدنى الحدود** . هذا الحلم الاخير يرافقه دوما احساس بالحصر يرغمه على التوقف ، وتشير جميع الدلائل الى انه معادل عمل التنكير ، وذلك ما دام النائم لا ينجو من الحصر في احلام الفئة الثانية الا بفضل هذا العمل . وما اسهل ان نقيم البرهان على ان موقف الحلم الذي يسبب الحصر لا يعدو ان يكون رغبة قديمة غير متحققة جرى كبثها منذ عهد بعيد .

واننا لنجد بين الاحلام المفهومة احلاما يشق مضمونها على النفس ولكنها لا توقظ لدى النائم مع ذلك اي احساس بالحصر . ولا نستطيع ان نضع هذه الاحلام في مصاف احلام الحصر . وهي بمثابة حجة تدعم رأي اولئك الذين يريدون ان ينكروا على تظاهرات الحلم كل دلالة وكل قيمة . وحسبنا مثال واحد كي نبين ان هذه الاحلام ليست سوى **تحقيقات مقنعة لرغبات مكبوتة** ، وتنتمي بلا مرأى الى الفئة الثانية . وسوف نرى ايضا مدى براعة عمل النفل في تنكير الرغبة .

حلمت فتاة بأن طفل اختها الثاني قضى نحبه ، وبأنها تف

- ٩ -

لقد بات في مقدورنا ، بعد ان حددنا مفهوم الكبت وبيننا العلاقات القائمة بين **تحريف** الحلم وبين المادة النفسية المكبوتة، ان نوجز بصورة عامة الاستنتاجات الرئيسية التي استنبطناها من ابحاثنا .

نحن نعلم ان الاحلام اللببية والمعقولة هي تحقيق غير متنكر لرغبة من الرغبات . وبعبارة اخرى ، نعلم ان الرغبة التي تبين لنا هذه الاحلام تحقيقها العيني هي رغبة يقر بها الوعي ، لم تجد تلبية في الحياة اليومية ، لكنها جديرة بكل اهتمام . ويطلعنا تحليل الاحلام المبهمة والعويصة على شيء مماثل : فاساس هذه الاحلام هو بدوره رغبة متحققة ، رغبة تكشفها لنا من الجهة المقابلة الافكار الكامنة . والفارق الوحيد ان تمثيل هذه الرغبة لا يزال غامضا ، معتما ؛ وحتى نسلط عليه الضوء لا بد من اللجوء الى التحليل ، وسيزيح التحليل لنا النقاب تارة عن رغبة مكبوتة ولا شعورية ، وطورا عن رغبة وثيقة الالتحام بأفكار مكبوتة ، ومحمولة من قبلها ان جاز التعبير . وفي وسعنا تمييز

امام النعش تماما كما كانت وقفت قبل بضعة أعوام امام نعش
الوليد الاول للأسرة ذاتها . ولم يبعث هذا المشهد في نفسها
اي حزن .

وقد رفضت الفتاة بالطبع ان يتم تأويل حلمها على اساس
رغبة دفينية . وليس ذلك بتأويلنا اصلا . لكن الجدير بالملاحظة
انها كانت التقت بالرجل الذي تحبه بالقرب من نعش الطفل
الاول ، وقد كلمته ، ثم لم تره ثانية قط . ونحن لا يداخلنا شك
بانها لن تلتقي من جديد ، اذا مات الطفل الثاني ، بذلك الرجل
في بيت اختها . وثائرتها تثور اصلا على هذه الفرضية ، لكنها
تتمنى بكل حرارة نتيجتها . وكانت قد اخذت ، في اليوم
السابق للحلم ، بطاقة دخول الى محاضرة كان الامل راودها بأن
تشاهده فيها . الحلم اذن حلم جزع ونفاد صبر ليس الا ، مثله
مثل اي حلم يحدث قبل سفر او قبل سهرة في المسرح ، بانتظار
اي متعة من المتع . لكن لا بد ان تخفى على الفتاة رغبتها بالذات ؛
عندئذ يحل محل واحد من مظاهر الموقف مظهر آخر غير اهل
بأي صورة من الصور لان يبعث على الفرح . ومع ذلك ، لا
يبارح الفرح النائمة . ولنلاحظ ايضا ان العنصر الوجداني في
الحلم لا يتكيف الا مع مضمونه الكامن ، اي المضمون الذي جرى
كفته ؛ ونظرا الى ان هذه الفكرة الكامنة هي فكرة لقاء طالما تآقت
اليه النفس ، كان من المتعذر ان يصاحبها شعور بالحزن
والكرب .

- ١٠ -

ما دامت الفرصة لم تسنح حتى اليوم للفلاسفة كي يصبثوا
اهتمامهم على فلسفة للكبت ، فاننا نرى انه من الضروري ، في
هذا الاحتكاك الاول مع معضلة تكوين الحلم الملفزة ، ان نحاول
عرضها بأكبر قدر مستطاع من الوضوح . وقد استعنا ، في
مخططنا ، بدراسات اخرى غير دراسة الحلم - ولئن امكن في
البداية ان يبدو مخططنا على شيء من التعقيد ، فقد اتضح لنا
من جهة اخرى ان ما من تعقيد من هذه التعقيدات فائض عن
الحاجة وغير ضروري .

اننا نسلم بوجود وظيفتين خlaقتين للفكر في جهازنا
النفسي . وتتمتع ثنائية هاتين الوظيفتين بامتياز محدد ، وهو
ان جميع منتجاتها تصبح للحال جزءا من الوعي ، بينما يبقى
نشاط الاولى لاوعيا او لا يدلف الى الوعي الا بواسطة الثانية .
وعند الحد الفاصل بين هاتين الوظيفتين ، وفي النقطة
التي تلتحم فيها الاولى بالثانية ، توجد رقابة لا تدع شيئا يمر
الا ما كان محببا لها ، وتنبد الباقي . هذه المنتجات المنبوذة من

قبل الرقابة تشق طريقها عندئذ ، على حد التعبير الذي استخدمناه ، الى حالة الكبت .

لكن النشاطات المتقابلة للوظيفتين لا تبقى على حالها فـ في بعض الشروط ، وبالتحديد اثناء الرقاد الذي ينجم عنه بعض الارتخاء في حبل الرقابة ؛ وعندئذ لا يعود في الامكان نبذ المنتجات المكبوتة بتمامها ، بل تفلح في شق طريق لها نحو الوعي . ولكن بالنظر الى الوهن الذي يمكن ان يكون قد طرا على الرقابة ، وبالنظر ايضا الى انه من المتعذر الفاؤها ، فلا محيد ، حتى تجد المواضيع المكبوتة قبولا لها في الوعي ، عن ان تتنكر على نحو تفقد معه طابعها المقيت المنفر ؛ وعندئذ يكون ما يتسرب منها الى الوعي بمثابة تسوية بين نوازع الوظيفة الاولى ووساوس الثانية وتشككاتها .

لنلاحظ هنا ، بصرف النظر عن صور الحلم ، ان الكبت وارنخاء حبل الرقابة والقبول بتسوية هي في اساس كل سيرورة تسهم في تكوين صورة سيكوباتية ؛ وانه تتضافر في تكوين هذه التسوية سيرورات التكثيف والنقل وحتى الترتيب المؤقت والسطحي التي درسناها في عمل الحلم .

نحن لا نسعى الى ان نخفي ان عرضنا هذا مشوب على نطاق واسع بضرب من مصطلحات شيطانية . فقد بدا لنا بالفعل ان سيرورة تكوين الحلم الفامض تشبه المجهود الذي قد يبذله مرؤوس ما ليدس خلسة كلمة يعلم انها لا بد ان تفيظ رئيسه . وقد انطلقنا من هذه المقارنة لنحدد سيرورة تنكير الحلم وسيرورة الرقابة ، وبذلنا جهدنا لترجمة انطباعنا الاول الى نظرية سيكولوجية لا تخلو بعد من فجاجة ، لكنها على اقصى درجة ممكنة من الوضوح . واننا لنأمل ان يتيح تعميق دراسة المسألة في المستقبل التحقق من هوية الوظيفتين اللتين وصفناهما بـ «الاولى» و«الثانية» ، واكتشاف ارتباطات متبادلة تؤكد ما قررناه قبلها : التناحر بين الوظيفتين اللتين تحرس واحدهما

مدخل الوعي وتملك القدرة على اقضاء الاخرى عنه .
وحين يتم التغلب على حالة النوم، تستعيد الرقابة حقوقها، وتضرب صفحا عن كل ما فرض عليها اثناء فترة عجزها وتنحيه. ومما يؤكد فرضيتنا السرعة التي يتم بها امحاء الحلم من الذاكرة ، وكذلك التجربة التالية التي كثيرا ما يتاح لي القيام بها : فحين نسرد حلما من احلامنا او نخضعه للتحليل ، يمكن ان ينبثق على حين غرة تفصيل كنا قد نسيناه تماما ، وهذا التفصيل المنتزع من طيات النسيان يمثل بصورة شبه دائمة اقصر طريق واكثرها امنا ووثوقا للنفاذ الى معنى الحلم الكامن . ولهذا السبب على وجه التحديد كان يفترض فيه ان يفرق في لجة النسيان الذي يمثل المجهود الاخير واليائس للرقابة .

إذا سلمنا بأن مضمون الحلم يمثل رغبة متحققة ، وإذا كان غموض مضمونه من صنع الرقابة التي تحوّر وتنكّر المواد المكبوتة ، يغدو من اليسير علينا أن نحدد وظيفة الحلم . فبخلاف ما هو شائع لدى سواد الناس من رأي يرى في الحلم منفصلاً للنوم ، نصل إلى هذا الاستنتاج الغريب وهو أن الحلم بمثابة حارس للنوم . وسيقدم لنا الحلم الطفلي هنا خير برهان على ما نقول .

إن حالة النوم ، أو الانتقال النفسي من اليقظة إلى النوم ، تأتي الطفل عن طريق احساس بالتمب ينضم إليه شيء من الإكراه الخارجي ؛ إذ إن أهله ، حرصاً منهم على تسهيل ذلك الانتقال عليه ، يبعدون عنه جميع التنبيهات التي قد تصرف ذهنه عن فكرة النوم . ونحن نعلم كيف يتم إبعاد التنبيهات الخارجية ، لكن كيف نستطيع أن نخرس أصوات جميع تلك الرغبات التي تشغل ذهن الطفل وتتركه متيقظاً ؟ انظروا إلى أم تحاول أن تنيم طفلها : فهذا الأخير لا يكف عن المطالبة إما بقبلة وإما بلعبة ،

لكنها لا تلبى سوى جزء من رغباته ، وترجىء بسلطانها تلبية باقيها إلى الغد . وواضح أن جميع تلك الخلجات التي تهيج الطفل هي بمثابة عقبات تعيق نومه . من منا لا يعرف القصة المرحلة ، قصة الصبي الشرير الذي استيقظ ليلاً وطفق يصيح لكي يأتي وحيد القرن ؟ فالصبي العاقل لا يصيح ، وإنما يكتفي بأن يحلم بأنه رأى وحيد القرن وراح يلعب معه . والحلم ، الذي يري الطفل رغبته متحققة ، يحظى بثقة هذا الأخير وتصديقه أثناء نومه ؛ وبذلك يستمر الرقاد بعد تلبية الرغبة . وغني عن البيان أنه إذا كان الطفل يصدق صورته الحلمية ، فذلك لأن هذه الصورة تتلبس أشكالا مشابهة للواقع ، ولأن ذهن الطفل يكون مفتقرا إلى الملكة التي لن يكتسبها إلا في وقت متأخر ، ملكة التمييز بين خياله وهلوساته وبين الواقع .

أما الراشد ، بالمقابل ، فقد تعلم كيف يجري هذا التمييز . بل إنه فهم أنه لا جدوى من الإفصاح عن أمنيات ، ويعرف بالتجربة أنه أجدر به أن يكتم صواباته ويلجأ لرغباته إلى أن تأتي الساعة التي سيباح لها فيها أن تتحقق وتلبى بطرق ملتوية وبفضل ظروف موائمة . ويترتب على ذلك أنه يندر أن تمثل في نوم الراشد التحقيقات المباشرة للرغبات ، بل إنها قد لا تمثل بالمرّة ، كما يترتب عليه أن الحلم الراشد الذي يبدو لنا طفلي الطراز يتكشف عند التمحيص عن أنه في منتهى التعقيد . ولهذا يحدث لدى الراشد - لدى كل راشد سوى بلا استثناء - تفاضل في المواد النفسية لا يعرف الطفل نظيراً له . فثمّة وظيفة تتم فيه ، وظيفة تتغذى بتجربة الحياة وتمارس بكل حرص وغيره على جميع ميول النفس وأهوائها تأثير قمع وكف . وتتقلد هذه الوظيفة ، بحكم صلاتها بالشعور وبالنشاط الإرادي ، سلطاناً كبيراً على حياة الراشد النفسية برمتها ؛ والحال أنها تدين الكثير من الميول والنوازع الطفلية بأنها في غير محلها وفائضة عن الحاجة ، فتضع بالتالي في حالة كبت جميع

كيفية التفكير والاحساس المتفرعة من تلك الميول والنوازع .
لكن ما ان تطأىء هذه الوظيفة ، التي نتعرف فيها انانا
السوي ، الرأس امام ضرورة النوم ، حتى تقصرها الظروف
النفسية - الجسمانية على تخفيف قبضة رقابتها ، فلا تعود
تقاوم المواد المكبوتة الا مقاومة واهية . وليس لهذا التخفيف في
حد ذاته من اهمية تذكر ، ولن يكون هناك ضرر كبير من ان
تنعق لحين من الزمن الميول والنوازع الطفلية المكبوتة -
إسارها . كل ما هنالك انه ما دام النوم مستمرا فلن تجد منفذا
لها لا في الفكر الواعي ولا في النشاط المحرك ؛ ومن ثم ، لا مفر
من ان تغدو خطرا على النوم ، وهذا الخطر هو المطلوب تلافيه
ودروءه . وينبغي هنا ان نسلم بأن قدرا محدودا من الانتباه الحر
يبقى متاحا حتى في الساعات التي نكون فيها غارقين بعمق في
النوم . ويقوم هذا القدر المحدود من الانتباه الحر بدور الساهر
في حال حدوث ما يستدعي ايقاف نومنا والاستيقاظ ؛ ولولا
ذلك ، كيف يتأتى لنا ان نفسر - كما يلاحظ بحق عالم -
الفيزيولوجيا الموقر بورداخ - ان كل واحد منا يبقى اثناء نومه
حساسا ببعض التنبيهات الحواسية التي لها عليه تأثير خاص :
حساسية الام بصراخ طفلها ، حساسية الطحان بتوقف صوت
طاحونه ، وحساسية بني الانسان كافة بوجه عام بمنسابة
اسمهم ؟ ان هذا الانتباه الدائم التيقظ ينكفيء ايضا نحو
التنبيهات الداخلية الناجمة عن الرغبات المكبوتة ، فيجعل من هذه
الاخيرة حلما ، اي كما ذكرنا آنفا ، تسوية ترضي ميلين اثنين .
ان الحلم ضرب من تفريغ نفسي لرغبة في حالة الكبت ، وذلك
ما دام يمثل هذه الرغبة وكأنها قد تحققت ؛ وهو يلبي في الوقت
نفسه الميل الآخر بسماحه للنائم بالاستمرار في رقادته . و«أنا»
يسلك هنا سلوك الاطفال ، فهو يؤثر ان يصدق صور الحلم ،
ويبدو عليه وكأنه يقول : «أجل ، أجل ، معك حق ، لكن دعني
أنم» . والحكم التحقيري الذي نصدره في حالة اليقظة على

الحلم ، على تفككه وعدم ترابطه وافتقاره الى المنطق ، هو في
الاجلب الحكم عينه الذي يصدره «أنا» النائم على منتجات
الكبت ؛ ومما يعزز هذا التحقير ويقدم له المزيد من التبرير ان
منغصات النوم هذه لا تتوصل الى تحريكنا وإخراجنا عن
سكوننا . ونحن نبقي واعين لذلك حتى اثناء رقادنا ؛ فعندما
تشط صور الحلم وتتجاوز الحد في انعتاقها من قبضة الرقابة
نقول في انفسنا : «أف ! هذا حلم ليس الا !» ، ونستمر في
النوم .

قد يعترض علينا معترض بأن هناك حالات ، كحالة الحلم
الحصري على سبيل المثال ، يعجز فيها الحلم عن صيانة النوم .
لكن ينبغي ان نستنتج من ذلك فقط ان الحلم يؤدي وظيفتين ،
مهمة ثانيتهما قطع النوم عندما تدعو الحاجة . والحلم يشبه في
ذلك الحارس الليلي الحي الضمير المكلف اولا بواد جميع
الاصوات التي قد توقظ السكان ، ولكن من دون ان يتردد
بالمقابل في أداء الواجب المعاكس ، فيوقظ جميع الناس حين
تصبح الاصوات باعثة على القلق ولا يعود في مستطاعه وحده
ان يتغلب عليها .

وتتجلى لنا وظيفة الحلم الثانية هذه بمزيد من الوضوح
حين ندرس مفعول التنبيهات الحواسية على شخص نائم .
فمعروف ان التنبيهات الآتية من الخارج تؤثر بوجه عام على
مضمون الحلم ؛ وقد قام البرهان التجريبي على ذلك ، ونحن
ندين به لذلك العدد المحدود من الابحاث التي اجراها الاطباء على
الحلم والتي عزيت اليها ، مع الاسف ، اهمية مبالغى فيها .
وهنا ايضا نجد انفسنا في مواجهة لفز : فالشخص النائم ،
الذي يخضعه المجرب لتنبيه ما ، لا يتعرف في الحلم هذا
التنبيه ، وانما يقوم بترجمته وتأويله ... فكيف يتحدد
اختياره بين العديد من اشكال التأويل الممكنة ؟ الحق ان هذا
الاختيار لا يمكن الا ان يبدو لنا اعتباطيا وتصفيا ، والحال اننا

نعلم ، من جهة اخرى ، ان العسف النفسي لا وجود له .
يملك النائم ، بالفعل ، عدة وسائل للاستجابة لكل تنبيه
حواسي آت من الخارج . فمن الممكن ان يستيقظ ، ومن
الممكن ايضا ان يتوصل الى اطالة امد نومه ، وهو يتوصل الى
ذلك في الحالة الاخيرة بوسائل هي بدورها في غاية التباين .
فاذا حلم ، على سبيل المثال ، بأنه موجود في موقف يتنافى
والتشويش الخارجي ، تمكن من التغلب على هذا الاخير : من
قبيل ذلك موقف النائم الذي يشكو من خراج مؤلم في المجان ،
فيحلم بأنه يمتطي صهوة جواد ، اذ تكون الكمادة المخصصة
لتخفيف وجعه قد تحولت الى سرج لمطيته ، وبهذه الصورة
يمكنه ان يستمر في النوم . ومن الممكن ايضا - وهذه هي
الحالة الغالبة - ادخال التنبيه ، المدرك في الحلم ، في تداع
من الصور ذي علاقة برغبة مكبوتة تريد ان تحقق نفسها . ففي
هذه الحال ، سرعان ما يفقد التنبيه واقعيته ويلتحم بمادة
النائم النفسية . هكذا حدث لواحد من اصدقائي ان حلم بأنه
يتلو مسرحية هزلية ، وفي ذلك تحقيق لفكرة عزيزة عليه . فقد
راى نفسه في المسرح ، ومشاهد الفصل الاول تتالى بنجاح ،
وعاصفة من التصفيق تنفجر ... وهنا لا بد ان يكون النائم قد
نجح في اطالة امد نومه ، لانه حين استيقظ لم يسمع نأمة او
حسا ، وافترض ، وهذا ما ثبتت صحته فيما بعد ، انه قد
نفضت طنافس في الجوار . والحق ان جميع الاحلام التي
تحدث مباشرة قبيل الاستيقاظ بفعل ضوضاء ما ان هي الا جهود
لنفي الصوت المزعج ، ولاعطائه تفسيراً مغايراً ، ولكسب لحظات
اخرى من الكرى .

- ١٢ -

اذا سلمنا بأن العلة الرئيسية لتحريف الحلم او تشويهه
تكن في مقتضيات الرقابة ، فلن يدهشنا البتة ان وجدنا
جميع احلام الراشدين تقريبا ترتد عند التحليل الى رغبات
إيروسية . اننا لا نتكلم هنا عن الاحلام المشار اليها عادة باسم
«الاحلام الجنسية» ، والمتضمنة صورا إيروسية لا يحجبها اي
برقع ؛ فكل من حلمها يعرفها ، وان كانت مع ذلك تثير الدهشة
دوما بقدر او بآخر ، سواء امن حيث اختيار الاشخاص الذين
تتخذ منهم الرغبة موضوعا لها ، ام من حيث الفاء جميع
الحواجز التي يحرص الفرد الصاحي على نصبها امام متطلباته
الجنسية ، ام اخيرا من حيث تضمنها بعض التفاصيل الغريبة
التي تكاد ان تكون شاذة او منحرفة . والحال ان التحليل يبين
لنا ان الكثير من الاحلام الاخرى التي لا يبدو للوهلة الاولى انها
تنطوي على شواغل إيروسية ترتد ، بفضل عمل التأويل ، الى
تحقيق للرغبة الجنسية . ثم ان بعض مواد ذهننا الواعي ، التي

تبدو وكأنها اخذت طريقها الى حلم الليل بوصفها «مخلفات من النهار» ، لا يؤذن لها بالتسرب اليه الا لتقوم بدور الممثلين الصامتين في تمثيل الرغبات الايروسية المكبوتة .

ولنعد الى الازهان ، تفسيراً منا لوضع لا نتبين له من ضرورة نظرية ، ان الاخلاق والحضارة لم تكبت وتكافح فينا من نوازع بمثل ما فعلت بنوازعنا الجنسية . ولنعد الى الازهان ايضا ان هذه النوازع تعرف بارع المعرفة ، لدى غالبية البشر ، كيف تتهرب وتفلت من طغيان الوظائف النفسية التي هي من مرتبة اعلى . والدراسة التي قمنا بها في مجال آخر للجنسية الطفلية ، ولظاهرها الغامضة واللامفهومة بصورة عامة ، تبين لنا ان نقول ان الارتقاء الطفلي للحياة الجنسية توقف عند نقطة محددة لدى جميع الافراد المتمدينين تقريبا . ومن هنا ، فان الرغبات الجنسية المكبوتة لدى الطفل تصبح ، في زمن لاحق ، النوايا العديدة والقوية لتكوين احلام الراشدين (١) .

ان تحضيراً خفياً ضرورياً ولا غنى عنه كيلا يتضمن الحلم ، الذي هو تعبير عن رغبات ايروسية ، اي اثر من الجنسية في مضمونه الظاهر . فمواد الصور الجنسية يجري استبدالها في مضمون الحلم ، بالنظر الى تعذر ظهورها كما هي ، بإشارات او كنايات او اي شكل آخر من اشكال التعبير اللامباشر . ولكن بعكس ما يطلب عامة من هذه الصيغ ، يفترض في صيغ الحلم قبل كل شيء الا تكون قابلة للفهم مباشرة . هكذا تتفسر الواقعة المعروفة على نطاق واسع ، واقعة التمثيل الرمزي لافكار الحلم؛ وهي تستحق منا ، بالفعل ، المزيد من الاهتمام ما دمنا نعرف اليوم ان جميع الحالمين من لغة واحدة يستخدمون رموزاً

١ - راجع كتاب المؤلف : «ثلاثة مقالات في نظرية الجنس» ، ١٩٠٥ .

واحدة . بل انني سأضيف ان وحدة الرموز تمتد في بعض الحالات الى ما وراء وحدة الالسن . ولما كان الحالم نفسه يجهل معنى الرموز التي يستعملها ، فان مسألة اصل هذه الرموز وطبيعة العلاقات التي يمكن ان تقوم بينها وبين موضوعها تظل مسألة يحيط بها كامل الغموض . لكن الواقعة اكيدة في حد ذاتها ، ولها بكل تأكيد اهميتها القصوى في تقنية تأويل الحلم . فمن المتعارف عليه انه ليس اسهل على من تتوافر لديه معرفة عميقة بعلم الرموز ذاك من ان يفهم معنى الحلم ، معنى جميع تفاصيله ومعنى بعض من اقسامه ، من دون ان يحتاج الى استجواب النائم بصدد افكاره الحلمية . ونحن نقرب هنا من المثل الاعلى الشعبي من جهة اولى ، ومن الجهة الثانية من الطريقة الاثيرة لدى الشعوب البدائية التي لا تفسر عندها لصور الحلم بغير الرموز .

وبالرغم من ان الاختصاصيين في علم رموز الحلم لم يخلصوا الى نتيجة نهائية بعد ، فان في وسعنا من الان ان ندرج في عداد المكاسب بعض المعطيات العامة وعدداً معيناً من الملاحظات الخاصة .

هناك رموز ليس لها سوى تأويل واحد : من قبيل ذلك الامبراطورة ، الملك والملكة ، وهي تعني الاب والام . كما ان الغرفة تعني المرأة (١) ، وابواب الدخول والخروج تمثل الفتحات الطبيعية في الجسم . والرموز التي يستخدمها الحلم غالباً ما تفيد في تمويه اشخاص او اجزاء من الجسم او افعال ذات صلة بالجنس . وتستخدم الاعضاء التناسلية بوجه خاص مجموعة من الرموز الغريبة ، وتدخل في تركيب هذه الرموز الاشياء

١ - جناس بالالمانية غير قابل للترجمة الى العربية . «م»

الأكثر تباينا وتنوعا . والحال اننا نسلم بأن الأسلحة المدببة ، والادوات الطويلة والصلبة ، وجذوع الأشجار والقصب ، تمثل العضو الذكر ، بينما تحل الخزائن والعلب والعربات والمدافئ محل العضو المؤنث في الحلم ، ودافع هذا الاستبدال يسهل فهمه . لكن الرموز الحلمية لا تنطوي جميعها على مثل هذه الكنايات الشفافة ؛ فحين يقال لنا ان ربطة العنق هي العضو الذكر ، وان الغابة هي الجسم المؤنث ، وان الحركة الصاعدة ، الدرج ، تمثل العلاقات الجنسية ، فاننا نطلب وقتا للتفكير ما دام البرهان على صدق هذه الرموز لما يقيم بعد . ولنصف هنا ان معظم الرموز الحلمية ثنائية الجنس ، ويمكن عزوها بحسب الظروف الى العضو الذكر او العضو المؤنث .

وبعض الرموز عامة الاستخدام ، وهي تلاحظ لدى جميع الحالمين الذين يجمع بينهم لسان واحد وتكوين فكري واحد . وبالمقابل ، ثمة رموز أخرى محدودة الاستخدام ، يبتكرها الفرد بحسب حاجاته . وينبغي ان نميز في المجموعة الاولى الرموز المدعوة منها ، بحكم استعمالها في اللغة الدارجة ، الى تمثيل الأشياء الجنسية . ومن قبيل ذلك الرموز التي لها صلة بالفلاحة : البذار ، الإخصاب ، الخ . وينبغي في المقام الثاني ان نميز الرموز التي يبدو ان صلتها بالأشياء الجنسية تعود الى الأزمنة البدائية ، وهي صلة لا يمكن لها ان تولد الا في اظلم المناطق من لاشعورنا . ومهما يكن من امر ، ومهما تكن طبيعة هذه القوة الخلاقة للرموز ، فانها لم تنطفئ حتى يومنا هذا . ومما تجدر ملاحظته ان بعض الاكتشافات القريبية العهد ، كاكشاف المنطاد ، جرى استخدامها للحال من وجهة النظر هذه ، وانتقلت الى مصاف الرموز الجنسية .

بيد اننا نخطئ مع ذلك اذا تصورنا اننا نستطيع ذات يوم ، اذا تعمقت معرفتنا بعلم رموز الحلم (مفتاح الاحلام) ، ان نستغني عن استجواب النائم عن افكاره في حالة اليقظة ، وان نعود الى الطرائق البدائية في التأويل . فعلاوة على ان هناك رموزا فردية ، وعلى ان هناك تقلبات لا تقع تحت حصر في استخدام الرموز العامة ، يتعذر علينا ان نعرف مسبقا هل ينبغي ان يؤخذ مضمون الحلم الظاهر بالمعنى الرمزي ام بالمعنى الحقيقي . وما نعرفه بثقة ويقين هو ان المواد ليست جميعها رموزا . فمعرفة الرموز تستطيع ان تهدينا الى سواء السبيل ، الى حد كبير ، عبر ما يبقى غامضا في مضمون الحلم الظاهر ، لكنها لا تغني عن استخدام الطريقة المذكورة اعلاه . وفي أحسن الاحوال ، يمكن ان تفيدنا كوسيلة للتنقيب في حال انعدام الافكار الحلمية او عدم كفايتها .

وعلم رموز الحلم يبدو لنا ايضا ضروريا لا غناء عنه سواء افي تحليل الاحلام المسماة بـ «النمطية» ، والمشاركة بين جميع بني البشر ، ام في تحليل الاحلام الفردية المسماة بـ «النوبية» . واذا كنا قد اكتفينا هنا بالالمام البسيط بهذه المسألة المثيرة للاهتمام ، مسألة التعبير الرمزي للحلم ، فهذا على وجه التحديد لان هذه المسألة تتجاوز بحكم اهميتها نطاق عملنا ؛ اذ هي تفودنا فيما وراء مجال الحلم الى مجال الخيال الشعبي . ففي المجال الاخير هذا نستطيع ان نرى الرمز في اصل القصص والخرافات والاساطير ، وفي روح الهزل والفولكلور ؛ وعن طريق هذا الرمز نستطيع ان نكتشف علاقات صميمة بين الحلم وبين تلك النتاجات المتنوعة . لكننا نعلم ان ليس عمل الحلم هو الذي ابتكر الرمز ، وان هذا الاخير لا يعدو ان يكون الشكل التعبيري لفكرنا اللاشعوري ، وانه هو الذي يقدم للعمل الحلم

- ١٣ -

من المحقق اننا لا نزعم اننا تطرقنا الى جميع المشكلات التي تطرح نفسها في موضوع الحلم ، بل لا نزعم اننا وجدنا حلا كاملا للمشكلات التي اثرناها هنا . والقراء الذين تثير المسألة اهتمامهم بصورة عامة يستطيعون الرجوع الى كتاب سانكتيه دي سانكتيس : «الحلم» ، تورينو ١٨٩٩ . أما أولئك الذين يبحثون عن عرض اكمل لنظريتي الشخصية في الحلم ، ففي مستطاعهم ان يجدوه في مؤلفي : «تفسير الاحلام» ، لايبزغ وفيينا ١٩٠٠ . ولنحدد ايضا ما الاتجاه الذي نتمنى لو يسلكه الراغبون في متابعة درس الحلم . فبياننا في الصفحات السابقة ان تأويل حلم من الاحلام يقتضي استبدال مضمونه الظاهر بأفكاره الكامنة ، وبعبارة اخرى ، تفكيك الحبكة التي حاكها العمل الحلمي ، اكون قد طرحت من جهة أولى مجموعة من المشكلات السيكولوجية الجديدة المتعلقة بهذا العمل والمتعلقة ايضا بطبيعة ما أطلقت عليه اسم الكبت وبتكوينه ؛ واكدت من جهة ثانية وجود افكار كامنة للحلم ، اي وجود مواد وفيرة يمكن ان تتولد

١ - من الممكن الرجوع ، فيما يتعلق بعلم رموز الحلم ، علاوة على المؤلفات القديمة في تفسير المنامات (ارتميدور دي دالديس ، شرنر : «حياة الحلم» ، ١٨٦١) ، الى كتاب المؤلف : «تفسير الاحلام» ، وكذلك الى الابحاث الميثولوجية للمدرسة النفسية - التحليلية وابحاث و. شتيكل («لغة الحلم» ، ١٩١١) .

عنها تشكيلات نفسية من المرتبة الاولى ، تضارع في كل شيء منتجات العقل السوية ، لكنها لا تستطيع ان تتجلى للشعور الا في نياح الحلم التنكرية . هذه الافكار الكامنة موجودة لدى جميع الناس ، ما داموا كلهم ، وحتى الاسوياء الذين لا تشوبهم شائبة منهم ، عرضة لان يحلموا . وانما بعلاقات هذه الافكار بالشعور والكبت ترتبط المسائل اللاحقة ، ذات الاهمية الاولى في علم النفس ، لكن التي لا مفر من إرجاء حلها الى اليوم الذي يتم فيه التوصل ، عن طريق التحليل ، الى توضيح اصل بعض التشكيلات السيكوباتية الاخرى كالاعراض الهستيرية والوساوس الاستحواذية .

صدر عن دار الطليعة

مؤلفات سيغموند فرويد

- مدخل الى التحليل النفسي
- نظرية الاحلام
- النظرية العامة للأمراض العصابية
- محاضرات جديدة في التحليل النفسي
- ثلاثة مباحث في نظرية الجنس
- خمسة دروس في التحليل النفسي (طبعة ثانية)
- مختصر التحليل النفسي
- علم النفس الجمعي وتحليل الانا
- علم ما وراء النفس
- الحلم وتأويله (طبعة ثالثة)
- مستقبل وهم (طبعة ثالثة)
- قلق في الحضارة (طبعة ثانية)
- التحليل النفسي والفن (طبعة ثالثة)
- الهذيان والاحلام في الفن (طبعة ثانية)
- ابليس في التحليل النفسي
- أفكار لازمنة الحرب والموت (طبعة ثانية)
- مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي
- موسى والتوحيد (طبعة ثالثة)
- التحليل النفسي للهستيريا : حالة دورا
- حياتي والتحليل النفسي
- مسائل في مزاولة التحليل النفسي